قراءة معاصرة لأفكار ابن عربي

المهندسة المعمارية

ميسون مسلاتي

دار أفنطة للنشر والتوزيع

AVANTA PUBLICATION
STOCKHOLM - SWEDEN
1997



قراءة معاصرة لأفكار
ابن عربي

Contemporary Readings of Ibn Arabi's Thoughts
@ Maysoun Musallati
Issued by Avanta Publications, Stockholm - Sweden, 97

قراءة معاصرة لأفكار ابن عربي
ميسون مسلاتي
الطبعة الأولى : 1997

Avanta Publications
P.O.Box 8048
163 57 Spanga
Stockholm - Sweden
Tel : 46 8 760 1474
Fax: 46 8 795 8824

ISBN:

قراءة معاصرة
لأفكار ابن عربي

المهندسة المعمارية
ميسون مسلاتي

دار افنطة للنشر والتوزيع
AVANTA PUBLICATION
STOCKHOLM - SWEDEN
1997

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

أهدي كتابي هذا إلى والدي الطبيب **حكمت مسلاّتي** ووالدتي السيدة **ملك شريّف**. وقد كانا رمزاً للعطاء والجود ونبعاً للحنان والعطف. شربت منهما الإيمان العميق وعرفت معنى الحياة وحبّ البحث عن المعرفة والحقيقة.

تغمّدهما الله برحمته وأسكنهما فسيح جنانه.

﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾

المؤلفة

تقديم

إلى كـل البـاحثين عـن الحقيقيـة، حقيقـة هـذا الوجـود العظيـم، وحقيقـة موجدِه وخالقِهِ، أقدّم هـذا الكتـاب، لعلّـه يُشـكّل عندهـم نقطـة البدايـة للتـأمّل والتّفكّر، فيثير فيهم الجوانب الكامنة العظيمة التي تكمن في كـلّ إنسـان، الـذي هو الخليفة المؤتَمن للّه في الأرض.

م - م

مقـــدّمـــة

لكلّ إنسان تساؤلات تدفعه إلى البحث المستمرّ للتوصّل إلى إجابات لها. وفي رحلة حيرتي في هذه الحياة وجدتُ إجابات عن كثير من تساؤلاتي من خلال قراءاتي لبعض مؤلفات (محيي الدين بن عربي)[1] ، وهو البحر المحيط في العلوم وفي فلسفة الأخلاق والوجود ومعرفة النفس الإنسانية .. وأنا أحاول أن أشرح بعضها تارة وأوجز بعضها تارة أخرى ، عسى أن يطّلع عليها أولادي فيستفيدوا منها ... وأبدؤها بالسؤال عن السعادة ، لأن كل إنسان يبحث عن السعادة ، فالسعادة شعور جميل يغمر الإنسان أحياناً ثمّ يغيب عنه ، فيحار في البحث عنها. قد يجدها في بسمة طفل ، أو في اقتناء الأشياء الثمينة ، أو في محادثة ممتعة مع شخص آخر ، أو في اجتماع مع الأصحاب ، أو في الانغماس في اللذات بأنواعها .. إلى غير ذلك من الأسباب .

[1] – راجع ترجمة حياته وأهمّ مؤلّفاته في آخر هذا الكتاب.

ولكـي يبحـث الإنسـان عـمّ يبحـث عليـه أن يضـع مفهـوم السـعادة تحـت (الميكروسكوب) ويدرسه . وهذا ما فعلته لنفسي ، فمـاذا وجـدتُ ؟ وجـدتُ أنّ السـعادة شعور ينبع من أعماقي فيغمرني بالفرح للحظات قد تطول أو تقصر ، وعندمـا أبحـث عـن أسباب هذا الفرح وأعزوها إلى حَدَث خارجيّ حصل معي أحاول وأسـعى أن يتكـرّر هـذا الحدث ، ولكن عند تكراره لا يعطي الأثـر المطلـوب والمنتظر منـه ، فـأيقنتُ أنّ الأسباب الخارجية المختلفة – رغم تأثيرها على انفعـالاتي – لكـن يبقـى هـذا التأثير علـى مستوى سطحيّ يختلف مدى عمقه بتأثير عوامل مختلفة ، أمّا الأعماق الحقيقية فإنّها ثابتة ، كـالبحر الذي يتغيّر مظهر سطحه وأمواجه بتأثير الرياح بينما أعماقه بعيدة عن هـذا التأثـير.. إذن ، عليّ أن أبحث في الأعماق ، وماذا وجدتُ فيها ؟

وجدتُ أنّ في الأعماق نوراً ذاتيّاً يبدّدُ الظلام الذي يـتراكم نتيجـة تجـارب الإنسـان وإحباطاته في الحياة ، وأنّ هذا النور بذرته المحبّـة ، الحـبّ الحقيقـيّ غـير المزيّـف بالمصـالح ، الحبّ الذي يلمسه الإنسان ويحسّ به خارجاً عـن إرادتـه منـوِّراً لقلبـه .. يبتـدئ بلحظـات قصيرة تومض في قلب الإنسان ، فينظر حوله ويعطي لهذا الوميض سبباً ممّا يـراهُ أو يسـمعه أو يحسّ به ، ولكنّه – للأسف – يتأكّد مع الزمـن أنّ هـذه الأسباب كلّهـا زائفـة . وهنـا يكمن الخطر ، خطر عـدم الفهـم .. فعندمـا يجـد أنّ الأسـباب زائفـة فـإنّ هـذا لا يعـني أنّ الوميض زائف ، بل هو حقيقيّ يطالبه بالكشف عنه والتعرّف إليه ، إنّه نور الفطرة الموجود في أعماق كل فرد من البشر ، النور الذي أضاء به تعالى باطن الإنسـان وجعلـه مرشـداً لـه للتعرّف إليه سبحانه ، إنّما تتراوح نسبة الشعور به حسـب صفـاء القلـب والنفـس . فمـن كان قلبه صافياً لا تعكّره الضغائن يسطع هذا النور في نفسه ، ويحـسّ بـه وتسـعد روحـه. ومن تكدّر قلبه بالمشاعر المتناقضة لا ينفسح له المجال للإحساس بشعاع هذا النـور ، ويبقـى بعيدا عن السعادة يتخبّط في ظلمات قلبه . ولو ركّز كلّ إنسان إمكانياته على إزاحة الغبار عن قلبه وصقله وتصفيته بالمشاعر النبيلة لشعر بذلك النور يغمره.

وقد أوجد الله تعالى هذا النور في نفوسـنا ليشـعرنا بوجـوده سـبحانه وبمحبّتـه لنـا. ولنتعرّف إلى معنى المحبّة الحقيقـي ، المحبّـة الـتي بـين الـربّ والعبـد : أليـس جميـلا أن يشـعر

الإنسان أنّ هناك من يفهمه ويعرف أسراره ، يشاركه أحزانه وأفراحه ، حكيم يوجّهه لما فيه نفعه ومصلحته ، يشعر بالأمان معه يقوّي عزيمته ولا يخشى منه أو يخجل عند مكاشفته بضعفه وعيوبه الخاصّة ، وتكون بينهما أُلفة ومحبّة وتفاهم ؟ وإذا وجد الإنسان بعض هذه الصفات في رفيق حياته فإنّه يحصل على أكبر سعادة يتمنّاها. وقد قلت "بعض" لأنه من الصعب الحصول على الكلّ عند البشر. ولكنّ السعادة الحقّة عندما تجد أنّ هذه الصفات جميعها – وهناك أكثر منها جمالاً وإيجابيّة وتكاملاً وأكبر تأثيراً – موجودة في متناول الجميع إذا عرفوا كيف يتناولونها ، وما وجود بعضها عند البشر إلاّ فخّ أو طعم من الله تعالى يستدرج فيه البشر للتعرّف إلى رحابه الفسيحة ، يذيقها للبشر ليبحثوا عن المزيد . فمن يتعرّف إلى الجزء اليسير يسعى إلى الحصول على الأكثر ، فالمحبّة بين الناس أوجدها الله تعالى جسراً يعبر بها البشر إلى حبّ الله تعالى الحبّ الحقيقيّ الصادق الذي لا يمكن أن يدخله زيف أو خداع. ومن يعتبر أنّ العلاقات الفيزيولوجية بين البشر هي وحدها الحبّ فإنّه لم يعرف من الحبّ إلاّ قشرته الظاهرة فقط .

فالقريب كل القرب ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾[1] الموجود دائماً ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[2] تشعر بقربه كلّما تذكّرته وتجاوبت معه هو الله تعالى ، والصلة تبدأ منك عندما تتذكّره. إنّما عليك التوصّل إلى اللغة المشتركة الخاصّة بينكما. وكلّما تعرّفت إليه أكثر ازدادت معرفتك بكلّ شيءٍ في العالم ، أو كلّما ازددتَ معرفة بالعالم ازدادت معرفتكَ به تعالى . وبهذه المعرفة تشعر أنّك تحقّق ذاتك وتغمرك مشاعر سعادة لم تكن تشعر بها من قبل.

ويخطئ من يظنّ أنّه ذلك الإله البعيد في سمائه الذي ينتظرك ليحاسبك على أعمالك ، بل هو القوّة التي تلمسها في أعماقك ، وتعيش بها فتجعلك ترى وتسمع وتدرك المعاني ، ومن ثمّ تدرك معنى وجودك وما هو مطلوب منك .

---

[1] – سورة (ق) ، الآية 16.

[2] – سورة البقرة ، الآية 186.

وقد طلب الله منكَ أن تعرف نفسك لتعرفه *(من عرف نفسه عرف ربّه)*[1] ، ودعاك إلى التّوجّه إلى داخل نفسكَ وتفهّم ما يحدثُ فيها لأنّ صلتكَ به تعالى عن طريقها. ومن هنا جاء الطلب المتكرر للإنسان أن يعبّر ويغوص بفهمه وإدراكه من الشكل الظاهريّ لكلّ أمر وكلّ شيء في هذه الدنيا إلى باطنه وتلمّس المعاني في بواطن الأمور. وبواطن الأمور فيها مستويات تزداد عمقاً كلّما ازداد الإنسان غوصاً وراء المعنى ، وبحثاً وتعمّقاً في فهم الحكمة الموجودة ضمن الأشياء وأمور الحياة. ولكلّ إنسانٍ وبحسب إمكانياته واجتهاده مستوى من الغوص لا يمكنه أن يتعدّاه ، ولكنْ قليلٌ من البشر وصل إلى المستوى من العمق المحدّد له حسب استعداده. فمعظمهم يكتفون بالبقاء قرب السطح ، بينما الكنوز موجودة في الأعماق ، ولا يلزم الإنسان لبلوغها سوى الرغبة والإرادة ، ثم الجهد والدراسة. وقد أعطى الله الإنسان في سبيل ذلك العقل ليستعمله ، وفيه من الإمكانيّات الكثير ، ولكنّ معظم الناس لا يستفيدون منه الاستفادة اللازمة ، فمعرفتكَ لنفسكَ ومعرفة إمكانيّاتكَ توضّح لك مدى مسؤوليتك عمّا يحصل معك في حياتكَ ، وما هي الحدود التي تقف عندها إرادتكَ وقدرتك ، فلا تدّعي بما لا يمكنكَ القيامُ به : ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[2]، ولا تتقاعس عمّا هو مطلوب منكَ ، بل تتعرّف إلى حقيقة مسؤوليّتكَ.

كما أنّ الله سبحانه وتعالى أوجد عند الإنسان بعض الصفات والمشاعر لتكون حافزاً واستفزازاً للعقل على العمل بطاقة أكبر ، مثل : الطموح والتنافس والطمع والحسد والغيرة.. وغيرها من الصفات التي يُفترَض فيها أنها وسيلة لحضّ العقل على الإنتاج ، بينما جعلها الإنسان غايةً انحرفت به عن الطريق السليم باستخدامها في غير موضعها ، فأعطته بهذا الانحراف الكثير من التعب والأذى. وقد بيّن الله سبحانه وتعالى الطريق السويّ الذي يوصله إليه ، أو يوصله إلى سعادته ، وسمّاه "الصراط المستقيم" – وسيأتي تعريف له في فقرة خاصة آتية – وقد قال ابن عربي : (**إنّ الله أودع أنوار الملكوت في أصناف**

---

[1] – حديث نبوي شريف.

[2] – سورة البقرة ، الآية 286.

الطاعات، فمن فاته من الطاعات صنف فَقَدَ من النور مقدار ذلك)[1] ، فهو يبيّن للإنسان كيف أنّ أنواراً متباينة يشعر بها في أعماق قلبه وتضيء له طريقه كلّما عمل شيئا ممّا يرضي الله ، وأنّ تكرار العمل بما يرضي الله يصقل قلبه ويمنحه ذلك النور الذي يسعى إليه ، كما إنّه سبحانه وتعالى وضع له الميزان لكي يزنَ الأمور ، فلا إفراط ولا تفريط ، فالمبالغة في كلّ شيء شطط ، بل التوازن في الوسط هو طريق السعادة.

ونعود إلى الحبّ الذي يربط الإنسان بربّه ، فنقول : إنّ الإنسان يخاف من المجهول ويخشاه ، ولا يمكن أن يحبّ ما يجهله ، ولهذا فهو يخاف الله سبحانه وتعالى ويخشاه طالما هو مجهول بالنسبة إليه ، ولذلك أيضاً وجبت عليه محاولة التعرّف إليه لإزالة الخوف وتقوية رابطة الحبّ ، وهي الرابطة الحقيقيّة.

ويشرح ابن عربي مفهوم الحبّ شرحاً مفصّلاً أُوجِزُهُ هنا بقدر الإمكان ، فهو يرى أنّ الحبّ فناء ، ويقصد بالفناء أنّه عندما تنطبق صورة ما على صورة أخرى وتكون الصورتان نسختين متشابهتين تماماً ، فإنّ إحداهما تفنى في الأخرى ، وتكون النتيجة صورة واحدة لكلتيهما منطبقة.

وبالنسبة للحبّ فإنّك عندما تحبّ شيئاً ما يفنى فيك الجزء منك الذي يماثل هذا الشيء عند لقائك به ، فيتّحدا ، ويصيرا شيئاً واحداً ، وما تبقّى منكَ يدركُ ما حصل ، فيشعر بالحبّ. وهكذا فالحبّ بين اثنين لا يمكن أن يحصل إلاّ إذا كانت بينهما صفاتٌ مشتركة متطابقة. وكلّما ازداد عدد نقاط التطابق بينهما يكون الحبّ أكبر. ومن الواضح أنّ هذا التطابق يكون في الصفات الروحيّة وليس المادّيّة ، فالمحبّ الذي يرى محبوبه يفنى منه الجزء الذي يتعشّقه به ويتّحدا محَلِّقَيْنِ في سماء الحبّ ، ويشعر بذلك الجزء الذي بقي من نفسه ، فتغمره هذه المشاعر وذلك خلال لحظات ذلك الفناء ، ولولا وجود تلك البقيّة غير المتفانية لما شعر بالحبّ وتعرّف إليه. ولهذا يعتبر ابن عربي أنّ الحبّ الحقيقيّ بين البشر هو البداية للتعرّف إلى الله سبحانه وتعالى والشعور بمحبّته وبفيض عطائه وكرمه ، يقول ابن

---

[1] – الفتوحات المكّيّة .

عربي : (لا يمكن أن يكون بين إثنين من الحبّ إلاّ إذا كانت بينهما مناسبة .. وإنّ معرفة الإنسان الكامل لربّه معرفة حبّ وفناء فيه – وقد أعطانا ا لله مثالاً على ذلك في المحبّة والعشق حيث يفنى كل جزء في مقابلة الجزء المناسب له. فعند مقابلة الإنسان لشيء يتعشّقه كدرهم أو زهرة مثلاً يفنى منه ذلك الجزء المناسب له. وإذا عشق شخصاً أو إنساناً مثله فإنّه يقابله بذاته كلّها وبجميع أجزائه ويفنى فيه عند مشاهدته لأنه على صورته ، فيقابله بذاته. فما بقي منه جزء ليصحو حتّى يعقل ما فني منه فيه . بينما إذا لم يكن الحبّ حقيقيّاً كاملاً كلّ جزء من العالم مع الحقّ إذا تجلّى له خشع له وفنيَ فيه. ولا يفنى الحقّ في الخلق ، لأنّ الخلق من الحقّ وليس الحقّ من الخلق)[1].

هذا الكلام أنقله عن ابن عربي لتوضيح تعبير (مناسبة) ، وهي الصفات المشتركة المتطابقة ، فلا يمكن أن يكون بين إثنين من الحبّ إلاّ إذا كانت بينهما مناسبة أو بعض الصفات المشتركة ، وأقول بعض لأنّه لو كانت كلّ صفاتهما مشتركة لكانا شخصاً واحداً لا إثنين. فلا بدّ من وجود الاختلاف حتّى يكون بينهما فرق واضح ويكونا إثنين. إنّما المناسبة التي تجمع بينهما هي التي تقوّي الصلة وتعطي المحبّة . والمناسبة بين ا لله تعالى والإنسان هي أنّ ا لله خلق الإنسان الكامل على صورته (وهناك تعريف للإنسان الكامل لاحقاً) فكان ظلاً له. وأعطاه صفاته من خلال أسمائه الحُسْنى حبّاً به ، والإنسان العاديّ ، الحيوان الناطق ، هو ظلّ أو هو جزء من الإنسان الكامل. وبقدر ما يقترب هذا الإنسان في صفاته من الإنسان الكامل تزداد معرفته با لله ويزداد له حبّاً ، ولهذا فإنّ عليه أن يحاول ويجاهد في التقرّب من الكمال ليزداد حبّا لله. ومهما جاهد ليصل فإنّه سيبقى دائماً الاختلاف في أنّ الأوّلَ ربٌّ والآخرَ عبدٌ .. وبالنسبة للصوفيّ : فإنّ غاية الصوفيّ الفناء في ا لله ، وهو التعبير عن حبّه الكبير لله ، ويكون ذلك بالتّخلّي عن صفاته البشريّة تماماً والتّحلّي بصفات ا لله سبحانه وتعالى الظاهرة في أسمائه الحسنى (الغفور – الرحيم ...) وبقدر همّته واجتهاده في ذلك قد يتمكّن من الوصول ، وا لله أعلم .

---

[1] – الفتوحات المكّيّة.

ويمكننا من خلال شرح ابن عربي لكثير من الأمور التي غابت عن أذهاننا أنْ نتعلّم كيف يمكن للعلاقة أن تتعزّز بين الإنسان والله سبحانه وتعالى ، وكيف تزداد معرفتنا به ونزيل من نفوسنا الخوف من المجهول ونتعلّم كيف نبادره بالمحبّة ونشعر بالتجاوب معه ، ولا يكون ذلك إلاّ بالتعرّف إلى معنى الإنسان الكامل وصفاته معرفة روحانية للإنسان العاديّ ، وكذلك معرفة بعض المعاني المبهمة التي ورد ذكرها في كتاب الله وتعالى ووقف الإنسان حائراً أمامها ، مثل : البرزخ ، والأعيان الثابتة ، والممكنات ، والروح ، والنفس ، والتسبيح ، والعبادة ، والتكليف ، والمشيئة الإلّهيّة ، والاقتدار ، والصراط المستقيم...الخ . وعن طريق المعرفة يمكن للإنسان أن يرقى في حياته للتقرّب من الكمال ، والوصول إلى السعادة الحقيقيّة. ويشرح ابن عربي أنواع المعرفة المطلوبة من الإنسان والطرق المختلفة للوصول إليها شرحاً مفصّلاً سأذكره ملخّصاً فيما بعدُ.

وقد كنتُ أعتبر الإيجاز في إعطاء المعنى كافياً لمن يستوعب المعاني ويفهمها من المرّة الأولى ، ولكنْ اتّضح لي أنّ التكرار في كثير من الأحيان ضروريّ ، فعندما تكرّر شرح معنى ما وبأسلوب جديد قد تفهم المعنى الأصلي أكثر ، أي قد تضيف إلى المفهوم الأوّل توضيحاً لزاوية معيّنة لم تكن موضّحة في المرّة الأولى. وهذا مع التكرار يزيد في إيضاح المعنى من زوايا مختلفة ، فيكون الإدراك له أكبر. فالتكرار وارد في كثير من مجالات الحياة ليعطينا إدراكاً أوسع لها. ويمكن أن نمثّل ذلك بالرياضة ، فعندما نقوم بأيّ تمرين رياضيّ – لتقوية عضلات الظهر مثلاً – لا يمكن أن يكون مفعوله جيّداً إلاّ إذا كرّرناه عدداً من المرّات ، ففي كلّ مرّة تزداد العضلة مرونة ولو زيادة طفيفة ، إلى أن يصل التأثير المطلوب بعد عدد من المرّات ، وهكذا الأفكار إذا كرّرنا قراءتها مرّة بعد مرّة يزداد استيعابنا لمعناها أكثر ، كما في تعلّمنا لغةً جديدة علينا ، فإنّ تكرار الكلمة نفسها في جمل مختلفة يوضّح لنا معنى الكلمة ومدلولها. ولذا فقد يجد القارئ تكراراً لبعض الأفكار توضيحاً للمعنى المطلوب ، إنّما من يريد الشرحَ مفصّلاً فإنّ عليه قراءة ما كتبه ابن عربي ، شيخ مشايخ الصوفيّة ، الذي يشرح في كتابه **الفتوحات المكّيّة** الطريق الذي على سالك الصوفيّة سلوكه للوصول إلى بغيته. ومن خلال هذا الشرح نلتقط الأفكار النيّرة وأنواع العلوم والمعارف

التي وردت إليه فتحاً إلّهيّاً تذوّقه عندما كان في مكّـة المكرّمـة ، ولذلـك سمّاهـا **الفتوحـات المكّيّة** وقد توصّل إليها بعد حياة كاملة في المجاهدة والعبادة وسلوك طريق ا لله. ويعلّق علـى مَنْ ينتقده بقوله : (**إنّ من لا يؤمن بهذا الكلام يجمع بين حرمـانين ، لا نـرى ذلـك مـن نفوسنا ولا نؤمن به من غيرنا .. وما ثمّ دليل يردّه ولا قادح يقدح فيه شـرعاً وعقـلا**)[1] فهي نفحات قدسيّة تجلّى ا لله بها على الإمام الأكبر ، وفيها علوم وفائدة لكلّ مؤمـن يريـد أن يزكّي نفسه ويصفّي قلبـه ويتعرّف إلى طريـق السـعادة . يقـول ابـن عربـي عـن كتابـه الفتوحات المكّيّة ما يلي: (**وسمّيتها رسـالة الفتوحـات المكّيـة في معرفـة الأسـرار المالكيّـة والملكيّة ، إذ كان الأغلب فيما أودعتُ هذه الرسالة ما فتح ا لله به عليّ عند طوافي ببيته المكرّم أو قعودي مراقباً له بحرمه الشـريف المعظّـم. وجعلتهـا أبوابـاً شـريفة ، وأودعتهـا المعـاني اللطيفـة ، فإنّ الإنسـان لا تسـهل عليـه شـدائد البدايـة إلا إذا عـرف شـرف الغاية...**)[2]

وإنّ من يطّلع على هـذا الكتـاب ويفهمـه ويستوعبه يشـكر ا لله تعـالى علـى نعمـة الإسلام ، ويتفهّم حقيقة الدين الإسلاميّ الحنيف .

ولقد كانت غايتي من هذا الكتاب ليست دراسة شخصيّة لابن عربي ، فأنا لا أجرؤ على تحمّل مسؤولية كهذه ، وقد قام بهذا العبء باحثون جادّون قبلـي ، وإنّمـا غـايتي أن أشرح بعض النواحـي الروحيّـة بأسـلوب مبسّـط للقـارئ العـاديّ الـذي سيجد فيـه غنـىً لوجدانه يسعده ويبتعـد بـه عـن الماديّـة العصريّـة الـتي لا تقـدّم لـه إلاّ الشـقاء. وعلـى هـذا فالكتاب ليس دراسة لابن عربي بقدر ما هـو رؤيـة شـخصيّة لمفهـوم سـعادة الإنسـان مـن خلال معرفته لحقيقة الأمور ، وكان ابن عربي المنهل الذي مدّني بهذه الأفكار.

---

[1] – الفتوحات المكّيّة ، ج2 ، ص6.

[2] – الفتوحات المكّيّة ، ج1 ، ص10.

روحانيّة الإنســـان

من المعروف أنّ الإنسان يتكوّن من جسم وروح، فالروح من عالم الغيب ، والجسم من عالم الشهادة. فهو يجمع عالَمي الغيب والشهادة. وقد قال تعالى : ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1] فكلّ شيء ملكوت هو روحانيّته الخاصّة. وللإنسان أيضاً ملكوت هو روحانيته ، وهو أشبه بالسموات السبع ، وهي بالترتيب بعد الجسم :

1. العقل .
2. النفس .
3. القلب .
4. السّرّ .
5. الروح .

---

[1] – سورة (يس) ، الآية 83.

6.الخفاء .

7.الذات .

فمن الخطأ أن نقول إنّه جسم وروح فقط ، لأن الروح هي إحدى سماواته ، وإن أُطلِقت عليها جميعاً تجاوزاً . وقد خلق الله تعالى أوّلاً روحانيّة الإنسان ، ثمّ خلق العالَم على مراحل ، ثمّ أخذ من كلّ قسم من العالَم جزءاً ، فجمعها وكوّن منها جسم الإنسان ، في طينة كالفخّار ، فكان آدم ، قال تعالى : ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الجَانَّ مِن مَارِجٍ مِن نَارٍ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1] فالإنسانُ هو الأوّل بروحانيّته والآخر بجسمه. ويرى ابن عربي أنّ العالَم كَمُلَ بوجود الإنسان فيه ، وهو خليفة الله في الأرض التي كلّفه بإعمارها ، وفيما يأتي جدول مختصر يبيّن المقابلة بين العالَم وما فيه والإنسان والذي يطلق عليه اسم (**العالم الأصغر**) :

	العالَم	الإنسان
عالَم البقاء	1. روحانية الإنسان الكامل.	1. لطيفة الإنسان أو روحه القدسيّ.
	2. العرش المحيط.	2. الجسم.
	3. الكرسيّ.	3. النفس.
	4. البيت المعمور.	4. القلب.
	5. الملائكة.	5. القوى وأرواحها الجزئية.
	6. زحل وفلكه.	6. القوّة العلمية والنفس.
	7. المشتري وفلكه.	7. القوّة الذاكرة ومؤخّر الدماغ.
	8. المريخ وفلكه.	8. القوّة العاقلة واليافوخ.
	9. الزهرة وفلكها.	9. القوّة المفكّرة ووسط الدماغ.
	10.الكاتب وفلكه.	10.القوّة الخيالية ومقدّم الدماغ.
	11.الشمس.	11.الروح الحيواني أو الغريزة.
	12.القمر	12.القوّة الحسيّة والحواسّ.

[1] - سورة الرحمن ، الآيات 14 ، 15 ، 16.

عالَم الاستحالات	13.النارو روحهاالحرارةواليبوسة. 14.الهواء وروحهالحرارةوالرطوبة. 15.الماء وروحه البرودةوالرطوبة. 16.التراب وروحه البرودة واليبوسة.	13.الصفراء (القوّة الهاضمة). 14.الدم وروحه (القوّة الجاذبة). 15.البلغم وروحه (القوّة الدافعة). 16.السوداء وروحها (القوّة الماسكة)
عالَم التعمير	17.الأرض وهي سبع طبقات : سوداء – غبراء – حمراء – صفراء – بيضاء – زرقاء – وحمراء. 18.الملائكة. 19.الحيوان. 20.النبات. 21.الجماد. 22.العَرَض. 23.الكيف. 24.الكمّ. 25.الأين.	17.السبعة من جسم الإنسان : الجلد – الشحم – اللحم – العروق – العصب – العضلات – العظام. 18.القوى التي في الإنسان. 19.الحسّ من الإنسان. 20.ماينمو من الإنسان (الشعروالأظافر). 21.ما لا يحسّ من الإنسان. 22.الألوان. 23.الأحوال (صحيح أو سقيم). 24.القياس (أبعاد الإنسان). 25.الزمان والمكان.

والإنسان الفرد نسبته إلى العالَم كما هي نسبة خلية من خلايا جسمه إلى جسمه ككلّ. فكما أنّ كلّ خلية في جسم الإنسان لها دور معيّن في حياة هذا الجسم ولهذه الخليّة روحها الخاصّة بها ، وهي ما تحويه نواتها من شفرة تسيّرها لتقوم بما عليها القيام به ، فهي جزء من كلّ ، كذلك الإنسان بالنسبة إلى العالَم هو جزء من كلّ ، أوجده الله تعالى في موقع معيّن ، وعليه القيام بما يقتضيه وجوده في هذا الموقع . والإنسان يرى أنّ جسمه المركّب من خلايا وأجزاء مختلفة يخضع في هذا التركيب لتأثير الزمان والمكان عليه ، فهو مادّة ، والمادّة خاضعة لتأثير الزمن ، وتطرأ عليها استحالات تتحوّل خلالها من حالٍ إلى

حال آخر ، أمّا روحانيّته فهي ليست مادّة محسوسة ، ولا تأثير للزمن عليها ، فهو يشعر بأنّ حقيقته وجوهره ثابت لا يتغيّر ، فمهما اكتسب من علوم ومعارف ، ومهما اختلفت عليه التجارب في الحياة فإنّه من داخله له هويّة خاصّة به يعرفها بنفسه تسمّى عينه ، وهي ثابتة لا تتغيّر ، وهي باطن الإنسان ، وموجودة في الغيب ولا يمكن مشاهدتها . هذه العين الثابتة لم تنزل إلى الأرض ، فليس مكانها الأرض (التي تتحكّم بها الأبعاد الأربعة : المكان بأبعاده الثلاثة والبعد الرابع الزمن) ، إنّما ما زالت في موطنها في السماء ، في عالم الغيب . والموجود في الأرض هو ظلّها أو هو انعكاس لها في المرآة (مرآة الغيب) ، وقد قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾[1] (ولهذا شرح مفصّل تحت عنوان الممكنات والأعيان الثابتة) إنّما سنشرح هنا معنى أرض الإنسان وسماواته السبع :

أ – فأرض الإنسان هي جسمه : والجسم خلقه الله تعالى على صورة الميزان ، وجعل كفّتيه يمينه وشماله ، وجعل قائمة الميزان ذات جسم الإنسان ، وقرن السعادة باليمين والشقاء بالشمال ، وهو تسمّى ميزان العلم ، أمّا ميزان العمل فهو كالقبّان : ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾[2] وهذا في حقّ السعداء ، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾[3] وذلك في حقّ الأشقياء .

ويصف لنا ابن عربي كيف أنّ الإنسان مقهور تحت سلطان الأركان ، وهي : النار والهواء والماء والتراب ، ثمّ العناصر الطبيعية : الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، التي هي أصل وجود الأجسام ، فتتحكّم فيه الطبيعة (مادّته) والوراثة والأفلاك (برجه) ونفسه أي تغيّر أحواله ومزاجه ، وأحكام أسماء الله الحسنى فيه (الرازق ، الرحيم ، الحليم...) ، ومن ثمّ عقله وما يستفيده من قدراته على التفكير ، فهو بذلك أضعف الضعفاء بقوله تعالى :

---

[1] – سورة الفرقان ، الآية 45.

[2] – سورة القارعة ، الآية 6.

[3] – سورة القارعة ، الآيات (8 – 11).

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ﴾[1] فكانت النشأة التي أنشأه الله تعالى عليها في هذه الدنيا على الضعف ، أضيفت إليها القوة المكتسبة من النفخ الإلهيّ للروح فيه ، وبذلك القَدَر الذي فيه من القوّة الإلهية استمدّ القوّة وتوجّب عليه التكليف وهو العبادة والمسؤولية ، وكان خليفة الله في الأرض وتوجّب عليه إعمارها.

ب – **أمّا سموات الإنسان فهي** : العقل ثمّ القلب ثمّ السّرّ ثمّ الخفاء ثمّ الذات .

1.العقل :

ويستمدّ معلوماته من الحواس ، فهو أقرب إلى الجسم ، ويستخدم القوّة المفكّرة التي أعطاها له ربّه مساعدة لعقله ، ليتمكّن بها الإنسان من العلم والمعرفة. والعقل هبة من الله تعالى على الإنسان أن يستفيد منها ، واستفادته منها هي التعبير عن شكره لله على هذا الفضل والعطاء . وقد اعتمد الإنسان على عقله وتفكيره في معرفة قوانين الطبيعة والفطرة التي يسير بموجبها الكون ، وتمكّن من القيام بإنجازات علميّة ومعرفية رائعة خلال تطوّر البشرية . فالعقل يتطوّر ويعطي ثماره بالتمرين المستمرّ ، فللعقل نور يدرك به الإنسان أموراً كثيرة بالدراسة وبذل الجهد ، كما أنّ للإيمان نوراً يدرك به أشياء أخرى ، فمن كان إنساناً تقيّاً مؤمناً يعلِمه الله من لدنه علماً آخر يدرك به العقل ما نسب الله إلى نفسه من الصفات والأفعال التي حملتها أسماؤه الحسنى ، وقد قال الله تعالى : ﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾[2] ، والفرقان هو العلم والمعرفة[3] .

2 – النفس :

النفس الجزئيّة ، أي نفس كلّ فرد ، متولّدة من الطبيعة (أمّها) ، ومن الروح (أبيها) ، وتأخذ إمداداتها من النفس الكلّيّة (أو اللوح المحفوظ).

---

[1] – سورة الروم ، الآية 54.

[2] – سورة الأنفال ، الآية 29.

[3] – الفتوحات المكيّة ج2 ص568 ، الباب السابع والستون (في معرفة النفْس – بسكون الفاء – وهو عندهم ما كان معلولاً من أوصاف العبد ، وهو المصطلح عليه في الغالب).

فالنفس الخاصّة هي التي تكوّنت عندما نفخ الله سبحانه وتعالى من روحه في الجنين ، المتشكّل في بطن أمّه ، فمنحه الحياة ، وتشكّلت بذلك نفسه الخاصّة به تحمل صفاته الخاصة تلك التي ورثها من أبويه وأجداده ، مضافاً إليها تأثير برجه والأفلاك لحظة ولادته ، وهي ما تسمّى قدره المكتوب ، مضافاً إليها العلم الإلهي المتمثّل في نفخة الروح ، وتشكّلَ من هذه الحصيلة استعداد هذا الإنسان الخاصّ به ، تحمله هذه النفس التي تسكن هذا الجسم ، وهي مسؤولة عنه .

ولكلّ شخص نفس ناطقة ونفس حيوانيّة ، الأولى تتعلّق بالإمداد الإلهي والعلم بجزئيّات وتفاصيل الأمور والأسباب وما يتبعها من نتائج ، والثانية النفس الحيوانية تتعلّق بالمزاج والطبيعة. فالنفوس الناطقة مراكبها النفوس الحيوانية ، فإمّا أن تسلك بها سبلاً مهلكة ، أو تستطيع أن توصلها إلى السلامة بالانصياع إلى قيادة العقل. فمن الناس من كان ذا نفس حيوانيّة غالبة عليه ، فتبقى النفس الناطقة منه معطّلة التفكير ، فيعيش على هواه لا يضبطه عقل ولا منطق. ومنهم من لم تتعطّل نفسه الناطقة عن نظرها وتفكيرها ، وتعرف من أين قام بنفسها الحيوانية كلّ أمر ، فتتوصّل إلى السبب ، وتستطيع بذلك السيطرة عليها والتحكّم بها بالعقل . فإنّ باطن الإنسان بنور النفس الناطقة يستضيء. فإذا صرفت هذه النفس نظرها إلى جانب الحقّ تبعها نورها ، فتلذّ النفس الحيوانية بالاستضاءة من ذلك النور إمّا لذّة علميّة أو لذّة حسّيّة (بحسب ملاءمة الأمر لمزاجها) ، وهكذا يمكن السيطرة على النفس الحيوانية وتعديل مزاجها وتمكين العقل منها بالسياسة والترويض . وليس قتل النفس الحيوانية مطلوباً ، إنّما ترويضها والتحكّم بها هو المطلوب.

والنفس الناطقة هي علم مجرّد ينير باطن الإنسان ، يقول ابن عربي : (إنّ **كلّ صفة نفسانية هي ظلٌّ ظلمانيّ لصفة إلهية نورانية تنزّلت في مراتب التنزّلات واحتجبت بالحجب وتضاءلت وتكدّرت ، مثل الشهوة ظلّ متأخّر للمحبّة ، والغضب ظلّ القهر. وعند رفع حجب صفات النفس بالاتّصاف بصفات الحقّ أو**

بالوصول إلى عين الجمع لصفات الحقّ تحصل للنفس كمالها)[1]. أي أنّ صفات النفس هي في الأصل صفات إلهية راقية في بداية خلق البشرية ، منذ آدم ، إنّما تراكم عليها بسبب تأثير الطبيعة والتطوّر والتحوّلات المتتابعة للأمزجة والرغبات طبقات من التعكير والتكدّر ، فزال صفاؤها ونقاؤها ، وتحوّلت إلى صفات بشرية متكدّرة . وعندما يستطيع الإنسان أن يزيل هذه الحجب المتراكمة فوقها يعود إليها صفاؤها وكمالها. ونفس كلّ إنسان هي التي تقع عليها مسؤولية أعماله في حياته ، وهي التي يحاسبها ربّ العالمين يوم القيامة : ﴿ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[2] ، ويفسّر ابن عربي قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾[3] بأنّ كلّ نفس بحسب فطرتها استعداد يناسبها (سائق) ، وقد يكون العقل هو الذي يسوقها ويسيطر عليها ومدبّر لأمرها (شهيد) وهو الروح الذي حُبس من أجلها في هذا الجسم. تستمدّ من الأول فيض العلم والنور ، ومن الثاني مدد القوّة والعمل ، وكلّما انجذبت إلى الجهة السفلية بالميل إلى الملذات الطبيعية احتجبت بغشاوتها تلك عن المدد الإلهي ، فضعفت إدراكاتها لاحتجابها عن قبول تلك الإشراقات. وكلّما توجّهت إلى الجهة العلوية بالابتعاد عن الإغراءات البدنية المادّيّة والتقرّب إلى الله تعالى بالزهد والعبادة والنزاهة ، وكان عملها مقرونا بالصدق والإخلاص في النية أمدّها الله تعالى إمداد النور والقوّة ، فتعلم ما لا يعلمه غيرها من أبناء جنسها وتقدر على ما لا يقدر عليه.

وللنفس الإنسانية صفات خاصّة بكلّ إنسان إمّا أن تكون فطريّة أو مكتسبة ، والصفات الفطرية لها مصدران :

---

[1] – الفتوحات المكيّة

[2] – سورة (يس) ، الآية 54.

[3] – سورة (ق) ، الآية 21.

المصدر الأولّ : هو نور الفطرة الاستعدادي الذي اكتسبه هذا الإنسان عند نفخ الروح فيه وهو جنين في الشهر الرابع في بطن أمّه. وبواسطته يتنوّر قلب الإنسان بالعلم والمعرفة ، فيتشكّل لجديه علم مسبق وخلفية ثابتة للعلوم التي سيكتسبها في المستقبل بجهده وعقله.

والمصدر الثاني : هو الصفات الوراثية التي تنتقل إلى الإنسان من والديه وأسلافه وتأثير الطبيعة فيه ، فيظهر في النفس مزاجها أثناء تكوين الجنين قبل ولادته.

أمّا الصفات المكتسبة فهي كلّ ما اكتسبه الإنسان من يوم ولادته إلى يوم مماته من صفات وخبرات وعلوم أضافها إلى مخزون المعرفة المتجمّعة عنده ، وهي التي سيورّثها للأجيال من بعده ، وبذلك يستمرّ التطوّر إلى يوم الدين.

3 – القلب :

إنّ قلب الإنسان هو موطن لمشاعره ، كما كانت النفس موطن رغباته. ومن رحمة الله تعالى التي وسعت كلّ شيء أن خلق لعبده قلباً وجعله أوسع من رحمته ، فإنّ قلب المؤمن وسع الحق ، كما ورد أنّ الله تعالى يقول : ***(ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن)*** [1]. فالمؤمن العارف وسّع الحقُّ قلبه فوسع قلبه كلّ شيء ، فعرف كلّ شيء بتعريف الله له فهماً وإدراكاً في قلبه. وعن طريق القلب تكون الصلة بين الله والإنسان. وقد جعل الله قلب الإنسان محلاً لتلقّي الواردات ، (**وهي ما يتلقّاه القلب من العلوم والمعرفة بطريق التنزيلات من عند الله سبحانه ، قال تعالى :** ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾[2])[3] ، فالواردات هي كلّ ما يرد على القلب من كلّ اسم إلهي من أسمائه

---

[1] – هذا حديث قدسيّ ، فقد ذكر ابن عربي في كتابه (الرسائل) ، كتاب التراجم ص20 : "قال عليه السلام مخبراً عن الله : *(ما وسعني أرضي ولا سمائي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن)*.

[2] – سورة النحل ، الآية 2.

[3] – الفتوحات المكّيّة ج2 ، ص566.

تعالى التي تحمل حكماً تؤثر به عليه ، وهذه الواردات أو الخواطر التي تخطر على قلب الإنسان هي سفراء من الله إلى قلب عبده ، وتكون على صورة رسالة ما أرسلوا به ، أي تكون بشكل صورة في خيال الإنسان ، ولا إقامة لهؤلاء السفراء في قلب العبد إلاّ زمان مرورهم عليه ، أي أنّ هذه الصورة الخيالية سريعة الزوال والنسيان ، ولا بدّ أن يكون قلب الإنسان مستعدّاً لما يلقى إليه ، ولولا استعداده ما كان قبوله لهذه الواردات. وهذا الاستعداد منه فطريّ ومنه مكتسب بالجهد ، فالإنسان الموحّد لله تنوّر قلبه بنور الحقّ واستنارت نفسه من فيض القلب ، وفهم عن الله كلّ ما يريد له أن يفهمه . والمؤمن من يسعى بالجهد لاكتساب هذا الاستعداد ، وقد سُمّيَ قلباً لأن الإنسان يعلم أنه يتقلّب في أحواله وخواطره وأسراره كلّها في صور مختلفة ومشاعر متباينة من فرح وضيق وخوف وطمأنينة ، ومع ذلك يعلم أيضاً أنّه مهما طرأ عليه في تقلّباته فإنّ جوهره ثابت وإنّ هويّته هي عينه وهي حقيقة يشعر بها في أعماقه. والقلب موطن المحبّة ، والمحبّة في القلب توجب العدالة في النفس التي تقود الإنسان إلى السلامة.

كما يتّصف القلب بصفتين أساسيّتين وهما اليقظة والغفلة ، ففي اليقظة يمكنه فهم معاني الواردات وإدراكها ، وفي حال الغفلة تزول عنه تلك الإدراكات ويستعصي عليه الفهم.

4 – السّرّ :

وهو الذي تقع فيه المشاهدة بين العبد والرب ، أو هو الوجه الخاصّ الذي تجلّى من الله تعالى إلى كلّ إنسان ، أي هو الصلة المباشرة القائمة بين كلّ إنسان وربّه . وهذا السرّ هو ما يميز الإسلام من غيره من الأديان بحيث لا يحتاج الإنسان إلى وسيط بينه وبين ربّه بل الصلة مباشرة ، فالعلاقة المباشرة ابتدأت عندما تجلّى سبحانه على جوهر هذا الإنسان أو عينه وهو في العدم ، وقال كن فكان ، وتشكّلت روحانيّته التي قابلت ربّها مباشرة ومشاهدة ، فتعرّفت إليه ، وكان بينهما عقد وميثاق ، قال الله تعالى ألست بربّك وخالقك ؟ قالت روحانية الإنسان

بلى أنت ربي وخالقي ، فهو الميثاق الذي أخذه ربّنا علينا إذ قال ا لله تعالى :
﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴾[1] ، فهو عقد بين الربّ والعبد وهو سرّ لا يعلمه إلاّ الطرفين : العبد والربّ ، يقول تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾[2] والعقد هو كلّ عزيمة على أمر يوجب إخراج ما في الاستعداد بالقوّة التي منحه إيّاها ربّه إلى الفعل الصادر عن إرادته ، وهو عقد بين الإنسان الفرد وبين ا لله يجب الوفاء به والامتناع عن نقضه بفتور أو تقصير ، أي أنّ ا لله سبحانه وتعالى عندما منح كلّ إنسان استعداده الفطريّ الخاصّ به وما يكمن فيه من قدرات ومنح إلهية وهبات كأن يكون قد وهبه موهبة فنّيّة مثلاً أو ذكاء لمّاعاً .. وما إلى ذلك من الصفات الخاصّة التي خلقها ا لله به بالقوّة الإلهية ، فإنّ على هذا الإنسان أن يُخرج هذه الهبة الإلهية أو الموهبة إلى حيّز الوجود بالفعل والجهد ، لا أن يضيّعها ويَفقُدها ، فقد منحها ا لله له قوّة في داخله وعليه أن يخرجها فعلاً يقوم به ، وهذا معنى : ﴿ أوفوا بالعقود ﴾ ، وقد قال تعالى ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[3].

ويرى ابن عربي أنّ السّرّ هو نسبة ظهور **(الحقائق الإلهية والصور الربّانية)** **في (الأعيان الثابتة الموصوفة بالإمكان والتي هي مظاهر الحقّ)** ، أي إنّ الإنسان – وهو العين الثابتة[4] – هو مظهر للحقّ تعالى ، فهو خليفة له في الأرض ، وبواسطة ما منحه من قدرة خاصّة به تظهر إرادة ا لله وأمره ، وعليه أن يُخرج إلى الوجود الصور الربّانيّة التي منحه إيّاها ، وأنزلها في باطنه كحقائق إلهية. فلا يتقاعس ويركن إلى الكسل والفتور والإهمال. فقيامه بما يتوجّب عليه من العمل هو الشكر

---

[1] – سورة الأعراف ، الآية 172.

[2] – سورة المائدة الآية 1.

[3] – سورة الضحى ، الآية 11.

[4] – سنشرح ذلك لاحقاً.

العمليّ الذي يشكر به ربّه على ما أنعم به عليه. ومن تقاعس عن ذلك يكون كافراً ، بمعنى كلمة (كفر) باللغة هي سَتَرَ ، أي الكافر هنا الذي يستر نِعَمَ الله التي أنعمها عليه ولا يظهرها.

5 – الروح :

قال تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1] فالروح هي أمر الله بكلمة (كن) الموجّهة إلى كلّ موجود لتأمره بالوجود فيكون ، أي إنّ روح العالَم الكبير هو الغيب الذي خرج منه ، يقول ابن عربي (**إنّ الأرواح المدبّرة للصور كانت موجودة في حضرة الإجمال** (الغيب) **غير مفصلة عند الله في عمله ، وهو الروح الكلّ . ولمّا سوّى الله صور العالَم ونفخ الروح فيها ظهرت الأرواح متميّزة بصورها**)[2] فشبّه الروح الكلّ بالماء المنهمر من السماء ، وهو واحد يسقي الأرض فتحيا وتخرج منها الأنواع المختلفة من النبات ، كلٌّ حسب استعداده ، وتستمدّ كلّ صورة خلقها الله روحها من هذا الروح الكلّ ، وتتفاوت المدد بتفاوت الاستعداد ، يقول الله تعالى : ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[3] .

ونحن نعلم أنّ الروح في الإنسان مرتبطة بتنفّسه ، وعن طريق أنفاسه يستمرّ في الحياة ، فخروج النَفَس هو الموت إذا لم يعد ، والحقيقة أنه مع كلّ نفس يجري على الإنسان خلق جديد ، يحمل إليه كلّ نفس علماً وأمراً من الله تعالى ، يتحكّم فيه اسم أو أكثر من أسمائه تعالى : (الرحيم ، أو الغفور ، أو الشافي ...) ويخرج النَفَس حاملاً معه صورة ما في باطن هذا الإنسان من العلم والمشاعر والأفكار

---

[1] – سورة الإسراء ، الآية 85.

[2] – الفتوحات المكّيّة ج3 ، ص12.

[3] – سورة الرعد ، الآية 4.

التي يحملها ، هذه الصورة تسجّل في كتابه الخاصّ به وتحدّد حاله في تلك اللحظة ، وقد قال تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا﴾[1] ، ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾[2] ، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾[3] ، فعلوم الغيب تنزل بها الأرواح على قلوب العباد ، فمنهم من فهمها وأدرك معناها وعرف مصدرها ، مثل أهل الإلهام ، الذين يجدون العلم بشيء ما في قلوبهم ولا يعرفون من جاءهم به . وأهل ا لله يشاهدون تنزّل الأرواح على قلوبهم ولا يرون المَلَك النازل به ، عدا الأنبياء فهم يرونه، يقول ابن عربي :

(إنّ في الخبز والماء وجميع المطاعم والمشارب والملابس والمواكب والمجالس والزهر والثمر أرواحاً لطيفة غريبة ، فيها استجابة مودعة لما يراد منها ، هي سرّ حياتها. وتلك الأرواح أمانة عند تلك الأشياء محبوسة في تلك الصور حتّى يؤديها إلى هذا الروح الإنساني الذي قُدِّرت له .. وفيها تجلّى حبّ ا لله لعبده الإنسان وعلوّ منزلته حتّى سخّر له ما فيه سعادته وعلمه وبقاؤه . والأرواح كلها موجودة في حضرة الإجمال[4] ، ووجودها في حضرة الإجمال أشبه بالحروف الموجودة في المداد[5] ، فلم تتميز لأنفسها وإن كانت متميزة في علم ا لله ، فإذا كتب القلم في اللوح ظهر صور الحروف مفصّلة بعدما كانت مجملة في المداد ، فقيل : هذا ألف وباء وجيم . فَنَفخُ الروح في الصور في العالم كذلك ، فظهرت الأرواح متميزة بصورها ، فقيل : هذا زيد وهذا عمرو وهذا فرس وهذا غزال. وكلّ صورة لها روح وإن كانت مدركة أو غير مدركة ذلك)[6].

---

[1] – سورة الشورى ، الآية 52.

[2] – سورة غافر ، الآية 15.

[3] – سورة الشعراء ، الآيتان : 193– 194.

[4] – أي هي مجمّعة ككلّ واحد مجمل.

[5] – أي الحبر.

[6] – الفتوحات المكّيّة

هذا الكلام لابن عربي يبيّن لنا أنّ الروح في الفرد الإنسان هي جزء من روح كلّيّ إلهي ، ويمكننا القول إنها مادّة واحدة أو كتلة واحدة انفصل عنها هذا الجزء الذي أعطى الحياة لهذا الإنسان عندما سُجنَ في هيكله أو جسمه ، وهذا الروح يضيق بسجنه هذا ويحنّ إلى العودة إلى مصدره ، وكلّ صورة في العالم لها روح هي جزء من كلّ ، تماماً كما إنّ أعضاء جسم الإنسان[1] ، وهذا معنى قوله إنها أشبه بالمداد الذي نكتب به فنتشكّل صور الكلام المكتوب الذي روحه من المداد وجسمه الكتابة ذاتها . هذا في الكتابة ، أمّا في القراءة أو القول فإن النَفَس الخارج من القارئ هو واحد ، ولكنّه يشكّل مخارج لحروف عديدة ينتج عن تركيبها الكلام ، فهو روح الكلام وإن كانت الغاية من الكلام هو المعنى الذي تعطيه مختلف التراكيب والأحرف وليس الأحرف نفسها ، ولو أنّ هذا المعنى لا يظهر إلاّ بهذه التراكيب ، كذلك الإنسان فإنّ جسمه وروحه هما التركيبة التي تحمل المعنى الذي هو (عينه) الذي أراد ربّ العالمين أن يظهر من خلال عمل هذا الإنسان وما ترك من أثر في مروره بهذه الحياة ، والحياة للأشياء فيض من حياة الحقّ عليها وهو الحيّ الأبدي ، فكلّ شيء حيّ يسبّح بحمده (سواء أكان ميتاً أو غير ميت) .

وليس الموت بإزالة الحياة إنّما هي انتقال في أحكام الأسماء الإلهية عليه ، لأنّ الأسماء الإلهيّة كالرحمن والرؤوف والغفور والرازق والقويّ والجبّار والحيّ والقيّوم... تتحكّم في الإنسان ، ولا يمكن أن تتحكّم جميعها في آن واحد لأن فيها أحياناً من التضادّ ما لا يمكن أن يجتمعا معاً في آن واحد ، ولهذا تتنقّل أحكامها على الإنسان بين لحظة وأخرى ، ومن بين الأسماء الإلهية المتحكّمة في الإنسان : الحيّ والقيّوم ، والحافظ والمدبّر ، وشبّه ابن عربي تحكّم اسم (الحيّ) بأنه كالوالي : فلا يمكن أن يبقى شيء في العالم دون والٍ يحفظ عليه مصالحه ، فالولاية قائمة للروح مادامت الروح مدبّرة لهذا الجسد الحيواني ، والموت هو (عزل الوالي) ، والنوم هو غيبة هذا

[1] – فمثلاً : السمع روح الأذن ، والبصر روح العين ، والقدرة روح كلّ خليّة موجودة في جسم الإنسان.

الوالي مع بقاء الولاية له وليس الموت ضدّ الحياة ، فالميت حيّ في قبره يُسأل ويجيب إنّما تغيرت عليه الأحوال ، فهو انتقال من منزل الدنيا إلى البرزخ لينتقل بعده إلى منزل الآخرة ، وكذلك الروح عند اليقظة ، والميت يعلم من نفسه أنه حيّ وإنّما حكمنا عليه بأنه غير حيّ جهل منّا ووقوف مع أبصارنا التي لا تدرك حياته ، إنما ترى أبصارنا ما طرأ عليه من التغيير بالموت من حركة ونطق وتصرّف ، وقد أصبح مُتَصَرَّفاً فيه ، وهو تنبيه من ا لله تعالى لنا بأنّه هو المتصرّف فينا دائماً ، فتصرّفه بالأحياء في القول والقدرة (لا حول ولا قوّة إلاّ با لله) ، وتصرّفه بالأموات في الحال ، أي أحوالهم.

والأرواح تابعة للأجسام وليست الأجسام تابعة للأرواح ، وكلّ جسم هو أرض لروحه ، قال تعالى : ﴿كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا﴾[1]، وهما كلّ جسم مع روحه ، ولو لم يكن الفتق ممكناً لما قام بهما ، وذلك بحسب طبيعة كلّ منهما وإمكانيّاته ، يقول ابن عربي : **(ما من صورة في العالم الأسفل إلاّ ومثلها في العالم العلويّ ، فصور العالم العلويّ تحفظ على أمثالها في العالم السفلي الموجود ، وهي أرواحها أو أسماؤها ، فهذا أثر الصور العلويات الفلكيّات في الصور السفليّات العنصريّات. وبين العالَمَيْنِ رقائق ممتدّة يكون عليها العروج والنزول ، كما بين الصور العلويّات والفلكيّات وبين اللوح المحفوظ رقائق ممتدّة ينزل من اللوح المحفوظ إليها العلوم والمعارف بما شاء ا لله وهو غذاؤها)** وهذا من علوم الوهب التي فتح ا لله بها على قلبه وبصيرته ، وهي غير خاضعة للمنطق والعقل ، ولكن تُعرف ذوقا.

وما إطلاق اسم العالَم العلويّ أو السفليّ تعبيراً عن المكان فيه : الأعلى والأسفل ، وإنّما هو تعبير عن المكانة . وبصورة عامّة يطلق اسم العالَم السفليّ على كلّ ما هو مادّيّ محسوس ؛ والعالَم العلويّ على كلّ ما هو روحانيّ غير مرئيّ.

---

[1] – سورة الأنبياء ، الآية 30.

6 – الخفاء :

وهي سماء الإنسان السادسة ، وهي مشاهدة جمال الذات الإلهية ، مع بقاء الأنية – من الأنا – مع بقاء الإثنينية.

فأنية الشيء هي حقيقته عندما يقول أنا ، قال تعالى : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾[1] فهذا إثبات الأنيّتين : الأنية الإلهية قائلة في التكوين (كن) ، والأنيّة القابلة السامعة في حال عدمها[2] وتميّز العبد عن الربّ لحظة خلق العبد بقوله تعالى : ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾[3] فكان العبد أقرب ما يكون من الحقّ ، كان في موقع المشاهدة ، مع وجود الفرق الواضح في الأنيّة لكلّ منهما ، وعلاقة العبد موقعه ، فلا يتعدّاه بادّعاء أو بشرك.

7 – الذات :

كما أنّ الله سبحانه وتعالى نتعرّف إليه بأنّه (ذات إلهية وصفات وأفعال) كذلك الإنسان الذي خلقه على الصورة مركّب من ذات العبد ، لأنّ خلقه على الصورة يستدعي الفناء عند تطابق الصورتين . ويعرّف ابن عربي الفناء كما يلي : **(إنّ معرفة الإنسان الكامل لربّه معرفة حبّ وفناء فيه ، وقد أعطانا الله مثالاً على ذلك في المحبّة والعشق ، حيث يفنى كلّ جزء في مقابلة الجزء المناسب له . فعند مقابلة الإنسان لشيء يتعشّقه ، كدرهم أو زهرة مثلاً ، يفنى منه ذلك الجزء المناسب له ، وإذا عشق شخصاً أو إنساناً مثله فإنّه يقابله بذاته كلّها وبجميع أجزائه يفنى فيه عند مشاهدته لأنّه على صورته ، فيقابله بذاته ، فما بقي منه جزء يصحو حتّى يعقل ما فني منه فيه ، بينما إذا لم يكن الحبّ حقيقياً**

---

[1] – سورة الأنفال ، الآية 16.

[2] – سيأتي شرح ذلك في موضوع الممكنات.

[3] – سورة طه ، الآية 12.

كاملاً فإنّ ما يفنى منه هو الجزء المناسب للآخر ويبقى الجزء الذي يعقل المناسبة)[1] ، هذا كلام ابن عربي نقلته حرفيّاً من كتابه **الفتوحات المكّيّة**.

وذات الإنسان هي جزء من ذات الله التي تتعشّق العودة إليه : ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2]، وهكذا كلّ جزء من العالم مع الحقّ ، إذا تجلّى له خشع له وفني فيه ، ولا يفنى الحقّ في الخلق لأنّ الخلق من الحقّ وليس الحقّ من الخلق ، ولا يفنى الكلّ في الجزء ، بل العكس ، وهذا يفسّر صعق موسى عند تجلّي الحق له عند الشجرة المباركة ، وكذلك دكّ الجبل ، وما ينتاب الرسل من غيبة أو غشية عند تلقّي الوحي.

وعندما يصلّي الإنسان لربّه لا تكون صلاته كاملة إلاّ بصلاة جسمه وسمواته السبع ، فيصلّي جسمه بالركوع والسجود ، ويصلّي عقله بالتفكّر في معاني الآيات ، وتصلّي نفسه لله والخشوع له بين الخوف والرجاء ، ويصلّي قلبه بالحضور مع الله وتلقّي الواردات من ربّه ويغمر قلبه نور إيمانه ، ويصلّي بسرّه عندما يشعر أنه بين يدي الله تعالى ويحاول أن يفهم عنه ما يريده منه وهو في موقعه ، وتصلّي روحه بالانجذاب إلى أصلها وبالمناجاة ، ويصلّي بذاته وخفائه بالتوجّه كلّياً وضمنيّاً إلى ربّه ، فلا يرى ولا يشعر بما يدور حوله من أمور دنياه ، وهذه هي الصلاة الكاملة : ﴿ واللهُ يعْلَمُ ما تَصْنَعونَ﴾[3] وما هي صلاتكم الحقيقيّة.

---

[1] – الفتوحات المكّيّة.

[2] – سورة البقرة ، الآية 245.

[3] – سورة العنكبوت ، الآية 45.

الاستعداد والمشيئة الإلهية

الاستعداد :

نحن نعلم أنّ الماء في الإناء على صورة الإناء شكلاً ولوناً ، وينطبق هذا المثال على معرفة الإنسان وعلمه بربّه. فالعلم با لله سبحانه وتعالى على قدر استعداد الإنسان وعلمه بنفسه *(من عرف نفسه عرف ربّه)* لأنّ صلته بربّه تكون عن طريق نفسه ، فإذا كانت نفسه مجهولة لديه انقطعت هذه الصلة أو ضعفت ، كما أنّ الإنسان يخشى من المجهول ، بينما معرفته لحقائق الأمور تزيل من نفسه الوهم والخوف ، وتريحه . وحقائق الأمور تكمن في باطنها وليس في مظهرها ، كما هي نفسه باطنة فيه ، ولذلك فإنّ معرفته لنفسه ضرورية ، ومحاولته معرفة بواطن الأمور تزيد معرفته للحياة وإدراك معناها. وقد خُلِق الإنسان من سلالة من طين ، ولذلك فهو من مادّة ظلمانيّة غير شفّافة ، أمّا صلته با لله تعالى فإنّها عن طريق قنوات اتّصال شفّافة غير مرئية ، نسمّيها رقائق ، تقدّم لله سبحانه في كلّ لحظة صورة عن هذا الإنسان ، صورة توضّح ما يجول في صدره ، فهو ﴿ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾[1] تكشف سرّه وأفكاره

[1] – سورة هود ، الآية 5.

وخواطر خيالاته ومشاعره والحال التي يكون عليها في تلك اللحظة وما مدى التأثيرات المختلفة عليه . كلّ ذلك نسمّيه (استعداده الخاصّ في تلك اللحظة) ، يطّلع عليها الله سبحانه وتعالى ، فيعرف ما بداخل نفس هذا الإنسان .

وهناك صورة أخرى تُسجّل عليه في اللوح الرابع ، وهو لوح الهيولى أو (الجينات الوراثيّة) ، يُسجَّل فيها اسمه وما اكتسبه من العلم والخبرة في حياته لتنتقل المعرفة من جيل إلى آخر عبر البشرية . وهكذا يمرّ الزمن على الإنسان ، وفي كلّ لحظة منه صورة صادقة هي تقرير مفصّل عنه يُسجَّل عليه ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾[1] ، وهذه الرقائق أو قنوات الاتّصال عندما ترسل الصورة صعوداً ، ويسمّى عروجاً إلى الأعلى ، تتلقّى في ذات اللحظة صورة نازلة تتنزّل بها الروح على القلب تحمل لهذا الإنسان الحياة ، وتحمل خواطر يتلقّاها قلبه ، تحمل أحكاماً تؤثّر فيه ، وهي أحكام أسماء الله الحسنى ، ولكلّ لحظة حكمٌ لاسم إلهي تقتضيه حال هذا الإنسان في تلك اللحظة . ويعتبر ابن عربي أنّ تغيّر أحوال الإنسان يظهر مع تردّد أنفاسه ، فإنّه عندما يخرج النَفَس من الإنسان يحمل معه صورة حاله أو استعداده الحاليّ ، فيطّلع الله سبحانه وتعالى عليه ، ويفيض عليه بحسب ما يقتضيه استعداده في ذلك الحال ، فيعود إليه النَفَس الوارد تحت حكم أحد أسمائه تعالى ، أي كلّ نَفَس يحمل إلينا حكماً من الله تعالى بتجلّي أحد أسمائه ، ذلك الاسم الذي يقضي حاجتنا بطلب أو دعاء ، مثل المريض الذي يدعو ربّه فيجيبه باسمه الشافي ، يقول الله تعالى : ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾[2] فالله سبحانه وتعالى يثبّت في قلب الإنسان الفكرة التي فكّر بها هذا الإنسان وكانت موافقة لمشيئته تعالى ، وعندها ينفّذها هذا الإنسان بإرادته تبعاً لمشيئة الله. وأمّا الأفكار التي لم توافق مشيئته فإنّه يمحوها من رأسه وقلبه ، فلا تخرج إلى حيّز التنفيذ. وهكذا مشيئة الله سبحانه وتعالى تعمل من داخل الإنسان ، فالإنسان ينفّذ ما شاء الله ممّا فكّر به ودرسه ، وأمّا ما لم يخطر على باله ولم يفكّر به فإنّه لن يُخلَق فيه ،

---

[1] – سورة (يس) ، الآية 12.

[2] – سورة الرعد ، الآية 39.

وبالتالي لن يستطيع تحصيله. ومن يفكّر بالمشاكل والشرور لن يغيّر الله ما بفكره ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[1]. فالفيض والعطاء من الله تعالى مستمرّ دائماً ودون انقطاع ، ولكنّ نوعيّته يحدّدها الإنسان نفسه وبحسب طلبه وحاجته وتفكيره ، هل هو عطاء مادّي يتطلّع إليه ويجهد للحصول عليه أو هو علم ومعرفة يسعى في طلبهما أو هو جاه ونجاح في الدنيا يسعى إليهما ، وذلك بحسب استعداد هذا الإنسان وتفكيره.

والاستعداد قسمان :

أ. استعداد فطريّ أصليّ : وهو الصفات الفطرية التي اكتسبها الإنسان عند نفخ الروح فيه وهو جنين في بطن أمّه ، فكان استعداده الفطريّ الذي يحمل صفاته وإمكانيّاته الشخصيّة الخاصّة ، وهو الفيض الأقدس الذي لا مدخل لفعلنا واختيارنا فيه مجتمعاً مع عوامل الوراثة وتأثيرات أخرى لا دخل لنا فيها ، كتأثير البيئة والمجتمع والعصر الذي وجد فيه هذا الإنسان .

ب. استعداد مكتسب : وهو ما يحصل عنده نتيجةً لتصفية قلبه وتزكية نفسه بالمجاهدة ، وتظهر فيه قابلية الشرّ والخير . ولإرادة الإنسان دور كبير في ذلك ، فقابليّة الشرّ من الاستعداد الحادث بسبب ظهور النفْس بالصفات والأفعال[2] الحاجبة لصفاء القلب والمكدّرة جوهره حتّى احتاج للصقل بالمصائب والبلايا ، وهذا عدل الله ، لأنّ المصائب التي تصيب الإنسان في حياته ، ويكون أكثرها نتائج لأعمال قام بها إمّا بنوايا غير سليمة ، أو بدون علم كافٍ ومعرفة لأسبابها ، ليست إلاّ تجارب يخوضها الإنسان تطهّر بها نفسه وتنصقل بها مرآة قلبه ويزيل ما علق بها من الكدر ، تماماً كما يزيل الفرن العالي الخبث من المعادن فتعود صافية نقيّة وذلك عندما يعرف الإنسان حكمة من ورائها ، فما يظنّه الإنسان شرّاً يصيبه يكون في الحقيقة خيراً له فيه حكمة إلهية لا يدركها إلاّ متأخراً. وعند إدراك الإنسان

---

[1] – سورة الرعد ، الآية 11.

[2] – كالحسد والغيرة.

لهذه الحكمة يستسلم لِقَدَرِهِ بقناعة ويستغفر ربّه. ومعنى ﴿ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ﴾[1] أي اطلبوا من الله ستر صفات نفوسهم التي هي مصادر أفعالهم الحاجبة لما في استعدادهم الفطريّ بنور صفاته التي ستشرق في قلوبهم ، كما أنّ الكفر هو ستر الإيمان والاستعداد الأصلي الطيّب بالغشاوة والرين الذي يكدّر القلب ويحجب عنه الإشراقات الإلهية ، وقد قال الله تعالى عن ذلك ﴿ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾[2].

المشيئة الإلهيّة :

ممّا تقدّم ذكره وقفنا على شرح لتأثيرات المشيئة الإلهيّة في الإنسان تجاوباً مع استعداده الخاصّ ، ولزيادة الشرح نقول إنّ الله سبحانه وتعالى أفاض علينا وجودنا بلفظة (كن) إنّما كلّ إنسان مسؤول عن أفعاله وصفاته المكتسبة ، وقد ذكر ابن عربي أنّه (إذا تجلّى سبحانه إلى ذات العين للممكن – أي إلى جوهر الإنسان الموجود في الغيب – وعرف استعدادها الحالي ممّا حمله النَفَس من صورة محتواها أعاد خلقها من جديد بإعطائها النَفَس الجديد التالي ، فتحيا بحالٍ أخرى ، ممّا يحمله هذا النَفَس من نفحات إلهية وبذلك يكون الله حافظاً وهو حكم أحد أسماء الله فيه ، ويكون الخلق الجديد مع كلّ نَفَسٍ لقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾[3].

ولا يمكن أن يتحكّم اسمان متضادّان في آن واحد ، وهذه شؤون الله تعالى التي ذكرها في كتابه العزيز: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾[4] فاليوم هو واحدة الزمن ، ويختلف من كون لآخر ، وأصغر واحدة أو أصغر يوم هو ما كان بين نَفَسين ، قال

---

[1] – سورة المزّمل ، الآية 20.

[2] – سورة يونس ، الآية 101.

[3] – سورة (ق) ، الآية 15.

[4] – سورة الرحمن ، الآية 29.

الله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[1] فالإعادة هي عودة النَفَس الثاني بعد خروج كلّ نَفَس ، فكما يحمل النفس إلى الجسم الأكسجين الذي يحيا به يحمل إلى الروح أيضاً ما فيه حياتها ، وهو العلم ، لذا فبالعلم حياة النفوس . وكذلك يحمل التعليمات والتوجيهات الخاصّة بذلك الحال ، وهكذا يلمس الإنسان العارف لربّه تحكّم الله به بأسمائه الحسنى ، وإنّ للأسماء تأثيراً مباشراً على نفسه وأفكاره ، ولكنّه بإرادته يختار أفعاله إمّا متحاوباً مع هذا الأثر أو متحاوباً مع صفات نفسه المتأثّرة بالطبيعة. وعلى هذا الاختيار تقع مسؤوليّته ، فمن يقول إنّه مجبر في اختياره يكون تأثير الأسماء فيه أقوى ، ومن يقول أنّه حرّ يجد في نفسه مجالاً واسعاً لاستعمال إرادته ، فالله تعالى لا يفرض عليك أبداً ما يجب أن تعمله ، فأنت في مجال التكليف ، إنّما هو سبحانه مطّلع وعارف بكلّ ما تفكّر فيه ، وما عقدتَ عليه النيّة. وما تقوم به من أعمال إنّما هو يخلق الأسباب ، والأسباب تعطي نتائج خاضعة لقوانين الفطرة الطبيعيّة ، فكلّ عمل يتمّ ليكون واقعاً يتمّ بمشيئة الله وبقدرته أو قوّته التي بثّها في الأسباب ، وهو – أي هذا الواقع – أحد ملايين الاحتمالات التي كانت موجودة في الخيال في اللحظة السابقة لوقوع هذا العمل ، ملايين الاحتمالات هي التي تظهر في تردّد الإنسان في هذا الأمر قبل حصوله ، ثمّ ينسى تردّده ومختلف الاحتمالات ، ويتّخذ القرار وينفّذه ، وهو أحد هذه الاحتمالات ، واختياره هذا الاحتمال الوحيد من بينها الذي تمّ ليكون واقعاً هو (مشيئة الله تعالى) ، وما وقع إلاّ ما اشتركت فيه إرادتك وأفكارك أوّلاً لأنّك في مجال التكليف ، وإرادة الله ثانياً بالقوّة والفعل اللذين أعطاهما لك لينفّذ ذلك الأمر ، قال تعالى: ﴿ وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾[2] فأثبت سبحانه المشيئة لنا وله ، وجعل حكم المشيئة التي يجدها العبد في نفسه ليست سوى مشيئة الله محتجبة وراء الأكوان والأسباب ، فالمشيئة الإلهية تختار أحد الاستعدادات الموجودة في باطن هذا الإنسان ، ولا تخلق استعداداً غير موجود سلفاً ، إنّما الاختيار بحسب الميزان الإلهي

---

[1] – سورة الروم ، الآية 11.

[2] – سورة الإنسان ، الآية 30.

، فالمشيئة تعين بالميزان أنّ استعداد هذا الشخص أعطى ذلك العطاء من ا لله ، ومَن استبطأ العطاء من ا لله فإنّ تأخّره نتيجة عدم وجود الاستعداد في نفسه للقبول ، كأن تكون نفسه متعكّرة المزاج فتحتجب بهذا التعكّر عن الإحساس بتجلّي ا لله سبحانه بأسمائه ، أو يكون قلبه مظلماً بالمشاعر العدوانيّة التي تحجب نور ربّه أو تشغل عقله أفكار وهميّة وخواطر شيطانيّة تبعده عن العلم والمعرفة الصحيحة ، وهكذا يظلم الإنسان نفسه محتجباً عن نور ا لله إذا تجاوب مع صفات نفسه المتأثّرة بالطبيعة وظلمات البدن ، ويجد هذا الإنسان أنّ ربّه يفيض عليه عطاءً متناسباً مع صفات نفسه الإنسانية التي تتحكّم بها الأهواء والعواطف المتباينة ، فيزداد إغراقاً في الضلالة. ومن أراد فيضاً قدسيّاً هادياً فإنّ عليه تزكية نفسه بالأخلاق الفاضلة وتصفية قلبه بالمشاعر الراقية الإيجابية ومراقبة أنفاسه وما تحمله معها من أفكار وخواطر[1] فيفرّق بتقواه وعلمه بين الحقّ والباطل ، بين تجلّيات الأسماء الإلهيّة وهدي ا لله وبين وسوسة الشيطان وهمساته ، فيتصرّف بإرادته ، وبذلك يكون مسؤولاً عن تصرّفاته ، وتسجّل عليه أعماله ، ويقوم بهذه الأعمال معتمداً على القدرة التي أعطاها له سبحانه وتعالى ، كالسمع والبصر..، أمانة لديه مستعيناً بها في عمله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[2] فعندما كَمُلت تسوية جسد الإنسان نفخ فيه ا لله من روحه روحاً مدبّرة لهذا الجسد قائمة به على قدر قبول نفس هذا الإنسان ما نفخ فيها مَن أوجدها من العلم والمعرفة ، وهكذا عرفت كلّ نفس مَنْ أوجدها ، وتلقّت منه الفيض الذي يناسبها أو ما تقبله حسب استعدادها ، بينما الفيض الإلهي واسع لأنه واسع العطاء ، إنّما نفسك التي حجرت عليكَ هذا الواسع وأدخلتك في الضيق ، بينما هو ا لله أكبر.

---

[1] – أي تغيّر خواطره مع تكرار النَفَس.

[2] – سورة الفاتحة ، الآية 5.

التكليف والأمانة

قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1] خصّ الله الجنّ والإنس بالعبادة بسبب التكليف ، فقد قال تعالى بعد خلق السموات والأرض : ﴿ اِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾[2] فإنّ أمر الله لا بدّ أن ينفذ ، إنّما التكليف ليس أمراً ، ولو كان أمراً لأعانه الله عليها ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً ﴾[3] فكان جاهلاً بأمرها ، فظلم نفسه .

والأمانة هي القدرة والطاقة التي لديه ، كالسمع والبصر والكلام والتفكّر ، وهي ليست له ، بل لله تعالى ، أعطاها له فمنحه وجوده ، وباسترجاعها يعود الإنسان إلى

---

[1] – سورة الذاريات ، الآية 56.

[2] – سورة فصّلت ، الآية 11.

[3] – سورة الأحزاب ، الآية 72.

العدم ، أعطاها الله له ليكون بها نائباً عن الله في أعماله ، وخليفته في إعمار الأرض.ولكنّ العبد ادّعى الاستطاعة في الأفعال والاستقلال بها ، فكان بذلك ظالماً لنفسه. ولولا ما ظهر العبد بالدعوى ما قيل له اتّقوا الله ما استطعتم بالقوّة التي جعلها فيكم ، فمن تنبّه على أنها مجعولة فيه وأنّها لمن جعلها لم يدّعِ فيها ، بل عرضها أمانة عنده ، وعليه إعادتها لمن ائتمنه عليها ، وهي قوله تعالى : ﴿لا قُوَّةَ إلاَّ بِاللهِ﴾[1] فالتكليف هو الطلب الذي طلبه الله سبحانه من عبده الإنسان عندما أعطاه الأمانة أن يصونها ويصرفها في موضعها ، أي أعطاه القوّة والقدرة ليظهر بالفعل ما أودعه الله فيه من الإمكانيّات هبةً منه ليستخدمها في طريق الخير وإعمار هذه الأرض ، ومن حاد عن هذه الطريق أو قصّر في أداء واجبه سيلقى حسابه ويعود عليه تقصيره بالضرر والأذى لنفسه ولغيره من خلق الله ، ويحدّد كلّ إنسان مرتبته ومركزه في الحياة الأخرى نتيجة لعمله في الحياة الدنيا التي هي امتحان له.ولكن لا بدّ للمكلّف أن يكون عاقلاً بحيث يفهم ما يُخاطب به[2] ، ولذلك كان الاعتماد على العقل والفهم عن الله وإدراك المعنى للحياة بالنسبة للإنسان المكلّف.

---

[1] – سورة الكهف ، الآية 39.

[2] – ولذلك لم يكن الطفل أو المجنون مكلّفين.

الصراط المستقيم

هو الطريق السويّ المستقيم الذي بيّنه الشرع الإسلامي للإنسان ليسير عليه في حياته من عمل وقول، وتكون به سعادته، كما هو طريق العبادة المطلوبة منه: ﴿ وَأَنِ اعْبُدُونِي هذا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾[1] وهو الخطّ الوسط بين الإفراط والتفريط الذي تتحقّق به العدالة والتوازن. ويكون الإنسان بذلك حنيفاً[2] فالإنسان الحنيف هو المائل خفيفاً عن الصراط المستقيم، لأنّه - أي الإنسان - ليس كاملاً. ولكنّه جعل هذا الصراط نصب عينيه، ولم يبتعد في ميله كثيراً. وقد أطلق الله سبحانه وتعالى على دين النبيّ إبراهيم عليه السلام، إذ قال: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ

[1] - سورة (يس)، الآية 61.

[2] - معنى الحنيف في اللغة العربية الميل الخفيف. وهو يختلف عن اصطلاح المذهب الحنفي في الإسلام الذي أسّسه الإمام أبو حنيفة النعمان، وهو من المذاهب الأربعة الرئيسة التي وجدت بعد ظهور الإسلام.

حَنِيفاً ﴾[1] ويقصد به الدين القويم الذي سلكه إبراهيم الخليل في حياته. وأعود وأقول : إنّه ميل خفيف عن الصراط المستقيم لأنه من البشر ، ولا بدّ له من الخطأ البشريّ ، إنّما جعله – أي الصراط المستقيم – هدفاً نصب عينيه ، ويزداد قرباً منه وتطابقاً معه بكلّ جهده وإرادته. بينما يسمّي الشرع الإسلاميّ البعيد عن الصراط المستقيم بالمسرفين ، فالإسراف في كلا الجانبين بعدٌ عن الله ، فلا إفراط ولا تفريط ، فكلاهما من الشيطان[2] فالمبالغة والإسراف في أي عمل أو صفة ليس من الدين الحنيف ، بما في ذلك ما يعتبره الإنسان فضيلة[3] واتّباع الصراط المستقيم هداية من الله تعالى ، لقوله : ﴿ إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾[4] ولكنّ الله يهدي من يجد فيه استعداداً واضحاً للهداية ، وهذا الاستعداد هو المكتسب بالمجاهدة والمران لصقل القلب وتزكية النفس ، لأنّ الاستعداد الفطريّ للهداية موجود عند كلّ الناس ، إنّما يكشفه ويجلّيه الاستعداد المكتسب المندرج ضمن إرادة الإنسان ومسؤوليته.

والصراط المستقيم هو السبيل إلى الله سبحانه وتعالى. وقد قسّم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم السبيل إلى الله إلى ثلاثة أقسام أو مراحل ، وهي : الإسلام ، والإيمان ، والإحسان.

1. فبدأ بالإسلام ، وقرن به عمل الأجسام من تلفّظ بالشهادتين والصلاة والزكاة والصيام والحجّ ، وكل عمل يقوم به الإنسان ابتغاء مرضاة الله تعالى ، يحمل بيديه ميزان الشرع يزين به أعماله ، وقد قال تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي

---

[1] – سورة الأنعام ، الآية 161.

[2] – مثل علاج البخل بالتبذير أو الإسراف بالتقتير.

[3] – كالصدق ، فالمبالغة فيه قد تؤذي ، والزهد : المبالغة فيه تبعده عن الدين الحنيف ، وكذلك التطرّف في كلّ شيء.

[4] – سورة الفاتحة ، الآية 6.

الميزان ۞ وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ﴾[1] فلا إفراط ولا تفريط ، بل هو الصراط المستقيم في الوسط المحقّق للعدالة ، وقد قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ﴾[2].

2. وثنّى **بالإيمان** وهو ما يشهد به الجنان من التصديق با لله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء : خيره وشرّه ، وه الانتقال من الأفعال إلى الصفات ، وبمحاولة الإنسان التجرّد عن صفاته الخاصّة المتعلّقة بالطبيعة والاتّصاف بصفاته تعالى التي تتضمنها أسماؤه الحسنى ، وهذا يتمّ ضمن السير والسلوك إلى ا لله تعالى واتّخاذه – سبحانه وتعالى – قصداً وهدفاً.

3. وثلّث **بالإحسان** وهو إنزال المعنى الروحانيّ منزلة المحسوس في العيان ، والتوصّل بذلك إلى اليقين المستقرّ في الصدر ، ويكون في البدء علم يقين ، وهو العلم الذي لا تدخله شبهة ، ثمّ عين يقين يشهد بعينه معنى ذلك العلم ، ثمّ يفتح ا لله بصيرته بفهم وإدراك المعنى بإعلام منه ، فهو حقّ اليقين ، وهو طريق التوحيد الذي يعبر جسد الإنسان (بفعله) ويصعد من خلال سموات وهي : العقل والنفس والقلب والسرّ والروح والخفاء والذات ، مخلّفاً العلم في العقل ، والعدالة في النفس ، والمحبّة في القلب ، والوحدة في الروح.وهو في الحقيقة تعريف التصوّف الحقيقيّ.

وهذا أوجز ما يكون في شرح الصراط المستقيم ، معتمدين على ما سبق من توضيح لمعاني بعض التعابير الواردة ، كالعبادة والتسبيح.

[1] – سورة الرحمن ، الآيات 7 ، 8 ، 9.

[2] – سورة البقرة ، الآية 143.

العلم والمعرفة
عند ابن عربي

إنّ الإنسان الذي تعوّد على طريقة معيّنة في التفكير والحياة معتمداً على مفاهيم يعتبرها ثابتة ملموسة تنطبق عليها قوانين الطبيعة التي يخضع لها هو أيضاً من الصعب عليه أن نقول له : عليك التجرّد من هذه المفاهيم والاعتماد على مفاهيم أخرى غامضة في نظره يبني عليها وجوده . وقد يكون ذلك صعباً ، ولكن التطوّر من سنن الحياة ، والعلم المتطوّر يجنح بنا إلى المفاهيم المجرّدة ، ونلاحظ أنّ العلوم المتطوّرة الحديثة تنبذ دائماً الأفكار القديمة ، وتضع قوانين جديدة معتمدة على المفاهيم المجرّدة – في الرياضيّات مثلاً الفيزياء – تفسّر بها ما يجري في الكون . فباعتماد العلم على المعادلات الرياضية المتطوّرة[2] استطاع أن يصل إلى اختراع مركبات الفضاء ، وإلى حساب حركات المجرّات والأفلاك البعيدة ، كما أنّ العلم بتطوّره يُعَدِّل دائماً من القوانين التي يرتكز عليها ويعتبرها بدهيّات ، وذلك عندما

– كثير من معادلات الرياضيات المتطوّرة تشكّل ألغازاً لغير المختصّ ، ولا يستطيع أن يفهمها.

يجد أنّها قد لا تتلاءم مع المكتشفات التي توصّل إليها ، ولذلك على الإنسان أن لا يدع عقله يجمد عند مفاهيم معيّنة ، بل عليه أن يتقبّل التطوّر في العلم والمعرفة .

وقد عدّ ابن عربي المعرفة والعلم غاية وجود الإنسان ، ولكن كيفية حصول العلم عند الإنسان وترقّيه في المعرفة حتّى يتوصّل إلى المعرفة المطلقة ، معرفة الكون ، ومعرفة الله خالق هذا الكون ، هو موضوع الاختلاف بين الفلاسفة والمفكّرين . فمن المعروف أنّ الإنسان خلال حياته – التي تبلغ وسطيّاً (70 – 80) سنة – لا يمكنه بجهوده الخاصّة أن يتوصّل إلى المعرفة الكلّية ، فكان أن أوجد بعض الفلاسفة فكرة التناسخ والحلول ، وملخّصها أنّ روح الإنسان تخرج من جسمه بموته حاملة معها كلّ ما تعلّمته ، لتحلّ في جسم آخر حديث الولادة ، لتكمل عن طريقه علمها ومعرفتها ، وعن هذا الطريق ، بعدد من التناسخات ، يحصل التطوّر ، وتتوصّل البشريّة إلى المعرفة .ولكنّ هذه الفكرة فقدت قيمتها عندما أكّد العلم أنّ المعلومات تنتقل من جيل إلى آخر عن طريق الوراثة ، وبواسطة الجينات الوراثيّة تتراكم المعلومات والخبرات البشرية عند الطفل الوليد.

إنّما لابن عربي رأي يضيفه في هذا الموضوع ، فهو يقول : **(لا بدّ أن تكون المعاني كلّها مركوزة في النفس ثمّ تنكشف له – أي للإنسان – مع الأناة حالاً بعد حال)**[1] ، فالمعرفة عنده موجود مسبق في نفس كلّ إنسان ، اكتسبه عند التجلّي الإلهيّ الأوّل له عند تكوينه[2] ، عند نفخ الروح في الجنين في بطن أمّه في الشهر الرابع ، بعد تسويته في بطن أمّه خلقه الله تعالى عندما قدّر للبويضة من أمّه وما تحمله من مورّثات أن تُلَقّح بواحد من نطف أبيه اختاره سبحانه يحمل من الصفات الوراثية ما شاء ربّ العالمين ، قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ

---

[1] – الفتوحات المكّيّة ، ج1 ، ص43.

[2] – وهو ما يطلق عليه السرّ الإلهيّ.

يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾[1] وعندما نفخ الله سبحانه وتعالى من روحه في هذا الإنسان أعطته هذه النفخة الحياة وفيها عرف الله خالقه ، ولأنه بيّن سبحانه في كتابه أنّ العلم حياة النفوس ، فإنّه أعطاه علمه في هذه النفخة ، وأحيا بذلك نفسه الجزئيّة الخاصّة به والتي يجري عليها التكليف في الحياة الدنيا ، ثمّ الموت ، ثمّ انتقالها إلى الحياة الأخرى ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[2] وقال أيضاً : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾[3] ذلك العلم الذي أعطاه النفخ الإلهيّ الموجود مسبقاً مرتكزاً في أعماق الإنسان ويشكّل خلفيّة في باطنه تحجبها تجاربه اليوميّة في الحياة ، فهو أشبه بالمعلومات المختزنة في الكومبيوتر في عصرنا هذا ، لا يشعر بها الإنسان إلاّ عندما يستدعيها من أعماقه لسبب ما ، وكثيراً ما يكون هذا السبب عقله عندما يفكّر في موضوع ما ويركّز عليه ، يقول ابن عربي : (**حين عمّرت الأنفس الأجسام الطبيعية في الدنيا فارقها العلم بتوحيد الله ، وأحيا الله العقل بالعلم بوجود الله ، وأحيا بعض النفوس بالعلم بتوحيد الله ، وقال تعالى : ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا ﴾[4] وهو الذي قبض منه روح العلم ﴿ فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾[5] فردّ إليه علمه ، فحيّ به كما**

---

[1] - سورة الحجّ ، الآية 5.

[2] - سورة الأنعام ، الآية 60.

[3] - سورة الأنعام ، الآية 98.

[4] - سورة الأنعام ، الآية 122.

[5] - سورة الأنعام ، الآية 122.

تردّ الأرواح إلى أجسامها في الدار الأخرى ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾[1])[2]. هذا المقطع من كلام ابن عربي يبيّن لنا أنّ الإنسان بفطرته يعلم بوجود الله خالقه عندما تجلّى له أوّل مرّة وقال له (كن) فكان .

ولكنّ الله سبحانه عندما احتجب بعد ذلك عن الظهور لخلقه وبقي باطناً في عالَم الغيب افتقده جميع خلقه ، فأخذوا يسبّحون بحمده طلباً لمشاهدته ، فأنكرت معرفته بعض النفوس وراحت تتّخذ لنفسها أرباباً جهلاً وضلالاً . ومن أراد الله هدايته أنار قلبه بنور الإيمان بوجوده ووحدانيته ، كما طلب منه السعي إلى العلم والمعرفة ليتوصّل بسعيه وعقله إلى الإقرار بوحدانيّته . ويؤكّد ابن عربي على أهمّية العلم بقوله : (**إنّ أفضل ما جاد به الله على عباده هو العلم ، فمن أعطاه الله العلم فقد منحه أشرف الصفات وأعظم الهبات . والعلم – وإن كان شريفاً بالذات – فإنّ له شرفاً آخر يرجع إليه من معلومه ، فإنّها صفة عامّة التعلّق وتشرف المفاتيح بشرف الخزائن ، وتشرف الخزائن بقدر شرف ما اختُزِن فيها) فالموجود الحقّ أعظم الموجودات وأجلّها ثمّ ينزل الأمر في الشرف إلى آخر معلوم . وما من شيء إلاّ والعلم به أشرف من الجهل به . فالعلم شرفه ذاتيّ ، والشرف الآخر مكتسب**)[3] هذا الكلام الذي نقلته عن ابن عربي يبيّن بوضوح أهمّيّة العلم بكل شيء ، فإنّ أي شيء في الوجود العلم به أفضل من الجهل به ، وهذا لأبسط الأشياء ، فما بالك بالأشياء ذات الأهمّيّة الكبرى في الكون ؟ فلا بدّ – بناء على هذا القياس – أن نعتبر العلم بالله تعالى هو أهمّ وأفضل علم.

وخزائن الجود هي الخزائن الموجودة في الغيب عند الله تعالى ، والتي تحوي العلم المطلق أو العلوم المختلفة المتعلّقة بكلّ شيء في العالم ، ويقسّمها ابن عربي إلى خزانتين لكلّ منهما أقسام كثيرة ، أهمّها :

أ. خزانة العلم بالله .

---

[1] – سورة الأنعام الآية 122.

[2] – الفتوحات المكّيّة

[33] – الفتوحات المكّيّة ، ج3 ، ص361.

ب.خزانة العلم بالعالَم .

ولن أدخل في تفاصيلها التي ذكرها ابن عربي في كتابه **الفتوحات المكّيّة**[1] ، إنّما المهمّ أنّ العلوم برأي ابن عربي تنقسم إلى أربعة أقسام :

1.العلم المنطقيّ : وهو علم العقل .

2.العلم الرياضيّ : وهو علم التجريد أو الخيال .

3.العلم الطبيعيّ : وهو علم المحسوس من المادّة .

4.العلم الإلهيّ : وهو علم التجلّي الإلهيّ

وتتداخل هذه العلوم مع بعضها ، فالأوّل والثاني والثالث منها تعمل كالآتي :

يدرك الإنسان المعلومات عن طريق الحواسّ والأدوات المساعدة لها ، والقوّة الخيالية تضبط المعلومات التي أعطاها الحسّ ، فتركب في الخيال ما شاءت من الصور من أجزاء مستمدّة من الحواسّ ، هذه القوّة المصوّرة في الخيال خاضعة بالأمر إمّا إلى العقل وإمّا إلى الوهم ، فإذا كانت خاضعة للعقل فإنّ قوانين المنطق أو قوانين الفطرة التي تسري على كلّ المخلوقات والقوانين الخاصّة بكلّ علم تضبطها ، وبذلك يتوصّل الإنسان إلى العلم التجريديّ – الرياضيّات – الذي سيوصله إلى التكامل المطلوب مع الزمن ، وأمّا إذا كانت هذه الصورة في الخيال عن أمر الوهم فهي سريعة الزوال لأنّ الخيال غير مقيّد بمادّة ، وهي تبقى في خياله طالما يفكّر بها ، ولكنّها تزول بمجرّد أن لا يعود يفكّر فيها . وقد خلق الله تعالى للإنسان الخيال ، وبدايته ما يراه النائم في الأحلام ، لكي يلفت انتباهه إلى علم ما وراء الطبيعة ، ويسعى للتعرّف إلى أبيه – الروح – ولا يبقى متعلّقاً فقط بأمّه – الطبيعة – التي فتح عينيه على مرآها فلم يرَ غيرها.

أمّا العلم الرابع ، وهو العلم الإلهيّ ، فهو العلم الذي أمر الله تعالى نبيّه محمد صلّى الله عليه وسلّم أن يطلب منه الزيادة مخاطباً إيّاه : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾[2] وهو العلم بالله والدار الآخرة وما تستحقه الدار الدنيا وما خُلِقَتْ له ولأيّ شيء وضِعَت حتّى يكون

---

[1] – راجع فصل (في حاجة النفس إلى العلم) في ج1 ص581. من كتاب الفتوحات المكّيّة.

[2] – سورة طه ، الآية 114.

الإنسان على بيّنة من أمره وعلى بصيرة. وباختصار : معرفة المفاهيم المجرّدة والأخبار التي أوردها الشرع على لسان الأنبياء ، وما كان وجود الأنبياء إلاّ للتعريف على ماهيّة هذا العلم.

والعلم با لله لا يكون عن طريق الحواسّ لأنّه : ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾[1] ، وبالتالي لا يكون نتيجة للتفكير أو الخيال ، بل يكون بشكل معرفة يهبها الحقّ تعالى لمن شاء من عباده يقبلها العقل من غير دليل أو برهان وهي الإيمان . وإذا أراد هذا العقل شرح ما كُشِفَ له من هذه المعرفة لعقل آخر لم يُكشَفْ له استعصى عليه الفهم والإدراك ، يقول ابن عربي : (**إنّ كلّ علم إذا بسّطته العبارة حسُن وفُهِم معناه أو قارب ، وعذُب عند السامع الفهم فهو علم العقل النظريّ لأنّه تحت إدراكه وممّا يستقلّ به لو نظر إلاّ علم الأسرار فإنّه إذا أخذته العبارة سمج واعتاص على الأفهام دركه وخشن ، وربّما مجّته العقول الضعيفة المتعصّبة التي لم تتوفّر لتصريف حقيقتها التي جعل ا لله فيها من النظر والبحث . ولهذا صاحب العلم كثيراً ما يوصله إلى الأفهام بضروب الأمثلة والمخاطبات الشعريّة**)[2] ولذلك فحسب الإنسان التهيّؤ لقبول ما يهبه ا لله من ذلك ، والعمل على تدعيم إيمانه بصقل مرآة قلبه.

والعالِم بالإلهيّات يزيد على غيره بالبصيرة ، وهي الحكم الصحيح على الأمور ، مثل الضروريّات للعقل ، وقد ذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾[3] فالمجتهد وصاحب الفكر لا يكون على بصيرة لأنّ حكمه يتغيّر مع تغيّر الزمان والمكان . ويفترض ابن عربي أنّ هناك طريقين يتوصّل بهما الإنسان إلى العلم والمعرفة : طريق صاعدة ، وأخرى نازلة .

---

[1] – سورة الشورى ، الآية 11.

[2] – الفتوحات المكيّة

[3] – سورة يوسف ، الآية 108.

أ. طريق صاعدة : تبدأ من الإنسان ، وبواسطته العقل والفكر الذي يستمدّ معلوماته من الطبيعة عن طريق الحواسّ يمكنه الوصول إلى المعرفة ، وبالتدريج . وهو لذلك أعطى العقل الإنساني قيمة كبيرة جدّاً ، ولا عجب لأنّ العقل الأوّل أو القلم هو أوّل مخلوق روحانيّ أوجده الله تعالى تستمدّ منه العقول الإنسانيّة أمدادها . كما كانت أوّل سورة أنزلها على رسوله قال فيها : ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1]

ب. طريق نازلة : وهي الفيض الإلهيّ المستمرّ الذي الإنسان ، كلّ حسب استعداده ، وبالإلهام لا بالوحي[2] . والإلهام هو خبر إلهيّ وإخبار من الله للعبد عن طريق ملاك مغيّب عن هذا المُلهَم ، إنّ النبيّ والرسول يشهد هذا الملاك ، وغير الرسول يحسّ بأثره في نفسه ولكن لا يراه . ويلهمه الله ما شاء أن يلهمه بلا واسطة ، وهو من علم الوهب ، ويتلقّاه الملهم إذا استطاع أن يهيّء له جهاز الاستقبال عنده ، وهو القلب والنفس ، بالتصفية والتزكية ، وليس باستطاعته إدراك الإلهام وفهم معانيه إلاّ ذوقاً[3] والمقصود بـ(ذوقاً) هو نتيجة تجربة شخصيّة يتعرّف بها كلّ فرد إلى الشيء ويدرك معناه إدراكاً وفهماً خاصّين ، يقول ابن عربي : **(ما من صورة في العالم الأسفل إلاّ ومثلها في العالم العلويّ ، فصور العالم العلويّ تُحْفَظ على أمثالها في العالم السفليّ الوجود ، فهي أرواحها أو سماؤها ، فهذا أثر الصور العلويات الفلكيّات في الصور السفليات العنصريّات ، وبين العالمين رقائق ممتدّة يكون عليها العروج والنزول ، كما بين الصور العلويّات والفلكيّات وبين الطبيعة رقائق ممتدّة ينزل من اللوح**

---

[1] – سورة العلق ، الآيات 1 – 5.

[2] – لأنّ سبيل الوحي قد انقطع بموت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم .

[3] – مثل العلم بحلاوة العسل لا تحصل إلاّ بالتذوّق ، أو مرارة الصبر ، وكذلك حلاوة العشق لا تحصل إلاّ بالتذوّق ، ويمكن التفريق بين الحلاوتين ذوقاً.

المحفوظ إليها العلوم والمعارف بما شاء الله ، فهو غذاؤها) ويشرح ابن عربي بهذا الكلام علاقة المعلومات والعلوم وارتباطها بالعوالم المختلفة[1] ويبيّن لنا أنّ هذا الارتباط يكون عن طريق ما يسمّيه (رقائق ممتدّة) ، وقد نسمّيها بتعبير عصريّ قنوات اتّصال بين مختلف العوالم . ففي العالَم الأرضيّ هناك صور لما يجري فيه ، تتابع مع تتابع الزمن ، هذه الصور تتّصل بقنوات مع عالَم الأمر ، العالم العلويّ ، وهو العالَم الروحانيّ الذي خلقه الله تعالى بالأمر بكلمة (كن) ، وعن طريق هذه القنوات تتنزّل التوجيهات إلى الطبيعة وتؤثّر بها مثلما تؤثّر الأفلاك والأبراج في البشر وفي مجرى حياتهم .

ويقسّم ابن عربي العلوم بحسب إدراكها إلى ثلاثة أقسام . علم العقل ، وعلم الأحوال ، وعلم الأسرار :

1. **علم العقل** : وهو كلّ علم يحصل عليه الإنسان عن طريق دليل عقله ، ويسمّى علم النظر . وبقدر صحّة الدليل يكون منه صحيح ومنه فاسد ، ويمكن أن يصل إليه كلّ إنسان بالدراسة والسعي والجهد . وقد يخطئ فيه ثمّ يصلح الخطأ ويتوصّل إلى الصواب بالتجربة والعمل المتواصل .
2. **علم الأحوال** : ولا سبيل إليه إلاّ بالذوق ، فلا يقدر العقل أن يقيم عليه دليلاً إلاّ بتذوّقه ، وهو من العلوم والمعارف التي يحسّ بها الإنسان بمشاعره ، وقد لا يتمكّن من التعبير عنها ، ولكنّه يدركها في أعماقه ، أي يتذوّقها . ويختلف البشر اختلافاً بيّناً في تذوّق هذا العلم ، وهذا الاختلاف ناتج عن اختلاف استعداداتهم .
3. **علم الأسرار** : وهو العلم الذي هو فوق طور العقل ، ويصفه ابن عربي بأنّه : **(علم نفث روح القدس في الروع ، العالِم به يَعلم العلوم كلّها ويستغرقها وليس بصاحبها ، فهو العلم المحيط الحاوي على جميع المعلومات التي تتنزّل من**

[1] – ويمكن فهمها أكثر بعد الاطّلاع على العوالم المختلفة التي خلقها الله تعالى ، مثل عالم الخلق وعالم الأمر ، والتي سيأتي شرحها لاحقاً.

اللوح المحفوظ ، وما بقي إلاّ أن يكون المخبر عنه صادقاً عند السامعين معصوماً)[1] فهو علم لا يعلمه إلاّ أناس خاصّون هم الصفوة المختارة من البشر ، الذين اصطفاهم ا لله سبحانه لينقلوا إلى باقي البشر ما يريده من أنباء ورسالات ، وهم الأنبياء المعروفون بصدقهم وعصمتهم عن الادّعاء والكذب ، فهم ينقلون معارف وعلوماً ليس لهم الحقّ في تغييرها لأنّها ليست منهم بل من ا لله سبحانه وتعالى ، ومثال ذلك القرآن الكريم . والمعرفة العامّة صنّفها ابن عربي وجعلها منحصرة في سبعة بنود ، وهي :

- علم الحقائق .
- العلم بتجلّي الحقّ في الأشياء .
- العلم بخطاب الحقّ عباده المكلّفين بألسنة الشرائع .
- علم الكمال والنقص .
- علم الإنسان نفسَه من جهة حقائقه .
- علم الخيال وعالمه المتّصل والمنفصل .
- علم الأدوية والعلل .

فمن عرف هذه المسائل السبعة التي يشرحها ابن عربي في كتابه **الفتوحات المكّية** فقد حصل على المعرفة ، والمعرفة تعطي للإنسان اليقين ، وهو استقرار وثبوت المعنى في النفس . ويكون في البدء علم يقين ، وهو العلم الذي لا تدخله شبهة أو شكّ ، ومن ثَمّ يشهد بعينه ذلك الأمر ، فيكون عين اليقين ، ثمّ يفتح ا لله بصيرته فيعلم علّة ذلك وسببه بإعلام من ا لله تعالى ، فيكون حقّ اليقين . وهذا التدرّج في المعرفة عند ابن عربي في كثير من المواضع :

علـم اليقين ـــــ عين اليقين ـــــ حقّ اليقين

ومعرفة كلّ إنسان لله تعالى تكون حسب معرفته لما يعطيه هذا الإنسان لله من صفات ، فإذا كان ينزّه ا لله سبحانه وتعالى عن أي صفة أو تشبيه حسب قوله : ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ

---

[1] – الفتوحات المكّية

شَيْءٌ ﴾[1] بقي مجهولاً لديه ، ومن أضاف إليه سبحانه صفات تشبه صفات الإنسان كما جاء في القرآن الكريم أنّ الله يغضب ويفرح ...الخ ، فما ذُكِرت هذه الصفات إلاّ مثالاً للتقريب لعقول البشر ، لمحاولة التعرّف عليه ، وبذلك سقف كلّ إنسان في معرفة الله في حال وسط بين التشبيه والتنزيه تحدّدها معلوماته . وقد قال الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾[2]، فأثبت أنّ ذلك علم ومعرفة يحصل عليها الإنسان بالجهد والعمل والفهم والإدراك ، و قال تعالى : ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾[3] أي تجاوزوا ما أعطاكم البصر مما أدركه من المبصرات وأحكامها إلى ما تدركونه بعين بصائركم ، وهو عبور إلى ما استتر وبطُن ، فهي آيات لقوم يتفكّرون ، كما هي آيات لقوم يتّقون ، فالمتّقي يتولّى الله تعليمه فلا يدخل علمه شكّ ولا شبهة ، والمتفكّر قد يصيب وقد يخطئ ، فالمتّقي صاحب بصيرة . ويعرّف ابن عربي المتّقي بأنّه الذي اتّخذ الحق وقاية له ، فكان الحقّ ظاهره[4] ، بعد أن كان الحقّ باطنه ، إذ إنّ باطن العبد وقواه مستمدّة من الله تعالى ، فكانت نفسه بذلك وقاية للحقّ تعالى. وهكذا يقول ابن عربي : (**ما عُبِدَ الله قطّ من حيث ما هو عليه ، وإنّما عُبِد من حيث هو مجعول في نفس العابد**)[5] أي أنّ كلّ إنسان يعبد الله تعالى بحسب معرفته به وليس بحسب ما يستحقّه الله من العبادة . وما اجتمع اثنان قطّ على علم واحد في الله من جميع الجهات لأنّه ما اجتمع في اثنين قطّ مزاج واحد ومعرفة واحدة ، فما عرف أحد من الحقّ سوى نفسه ، قال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ بسبب النقص في استعداداتهم الشخصيّة.

---

[1] – سورة الشورى ، الآية 11.

[2] – سورة النجم ، الآية 30.

[3] – الحشر ، الآية 2.

[4] – أي لا يقوم في ظاهره بما يغضب الله قولاً وفعلاً.

[5] – الفتوحات المكيّة

والمعرفة ككلّ مسجّلة في الألواح . والألواح أربعة : لـوح القضـاء – اللـوح المحفـوظ – أم الكتاب – لوح الهيولى .

1. **لوح القضاء** : وهو لوح العقل الأوّل ، أو القلم . وفيه المعلومات الكلّيّة عن خلق الكون والعالم . وهو الموجود الأوّل في عالم الغيب .

2. **اللوح المحفوظ** : وهو لـوح القَـدَر الـذي يفصـل معلومـات اللـوح الأوّل ويقـدِّر تفاصيلها وتتابع أحداثها وأسبابها ، أي هو (قوانين الفطرة) .

3. **أمّ الكتاب** : وهو لـوح النفـوس الجزئيّـة – أي نفـس كـلّ إنسـان فـرد – فلكـلّ إنسان كتابه ، ينقش فيه كلّ ما في هذا العالم (أثناء حدوثه) بشكله وهيئته ومقداره . فهـو سجلّ لكلّ فرد عن عمله ، وهو بمثابة خيال العالَم ، ويبقى في السماء الدنيا إلى يوم القيامة حيث يُنْشَر .

4. **لـوح الهيـولى** : وهـو الجينـات الـ (DNA) الوراثيـة القابلـة للصـور في عـــالَم الشهادة ، تســجّل فيـه المعلومـات الـتي يتوارثهـا البشـر ، ومكتسـباتهم ، أي هـو الذاكـرة الوراثيّة .

البرزخ الأعلى
وهو عالَم الأمر

يقول الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾[1] إنّ مفهوم البرزخ في أذهان الناس مفهوم بعيد عن ما توصّل إليه ابن عربي ، فهو يرى لهذه الكلمة مفهوماً مغايراً ، ولكنّه مستمدّ من معناها اللغويّ ، فهي منطقة تفصل بين عالَمين أو شيئين ، وتكون امتداداً لكلّ منهما . قلنا إنها منطقة لأنّها ليست خطّاً فاصلاً بين الطرفين (العالَمين) بل هو وجود "ثالث" بينهما ، هذا الوجود يشكّل حيزاً متماسكاً ليس فيه انقسام بل له وجه إلى الطرف الأوّل فيه صفات مشتركة بينهما ووجه إلى الطرف الثاني فيه صفات مشتركة بينهما أيضاً . ولهذا يمكننا أن نسمّيه منطقة وسطى قائمة بذاتها يحصل فيها الانتقال من المنطقة الأولى إلى الثانية عن طريق البرزخ . فهو

[1] – سورة الرحمن ، الآيتان : 19 ، 20.

الفاصل الذي يجعل البحرين لا يبغيان[1] ولا يمتزجان على الرغم من تلاقيهما للاختلاف الموجود في طبيعتهما.

ويمكننا إسقاط هذا المفهوم على كثير من الحالات في الكون . فالإنسان نفسه برزخ بين المادّة والروح ، يجمع بينهما ، والنفس الإنسانية برزخ بين الطبيعة والروح ، والخيال برزخ بين الحسّ والمعنى ، لأنّ الخيال يجسّد المعنى . وهكذا يعتبر ابن عربي أنّ الانتقالات في الكون تتمّ دائماً عن طريق البرزخ ، أي أنّ الوسائط بين العوالم المختلفة – مثل عالم الجبروت وعالم الملكوت وعالم الاستحالة – هي برزخ لكلٍّ منها ، مثل البرزخ الذي انتقلت إليه نفوس البشر بعد موتها في انتظار البعث[2] . إنّما **البرزخ الأعلى** هو الذي يكون بين الذات الإلهيّة والعالَم ، حيث إنّ الذات الإلهيّة لا يمكن معرفتها وإدراكها ، وإن كان من الممكن التعرّف إلى صفات الله وأفعاله ، والعالَم هو المخلوق الذي أوجده الله تعالى ، فالبرزخ الأعلى قائم بينهما . ويطلق عليه ابن عربي اسمَ (الألوهة)[3] ، وهي عبارة عن مفاهيم روحانيّة متميّزة بعضها عن بعض ، أوّل ما خلقها الله تعالى بالأمر ، بلفظة (كن) ، فشكّلت عالَم الأمر . ويدخل ضمن مفهوم الألوهة أو البرزخ الأعلى ما يأتي :

أ. العَماء .

ب. أسماء الله الحسنى .

ج. العقل الأوّل .

د. الإنسان الكامل .

ه. النفس الكلّيّة .

و. الهباء .

---

[1] – لا يتداخلان.

[2] – وهو المعنى الشائع في أذهان الناس لكلمة البرزخ.

[3] – انظر الفتوحات المكّيّة ج1 ، ص41 وما بعدها.

أ - العماء أو خزائن الجود :

سُئِلَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أين كان قبـــل أن يخلق الكـــون ؟ فقـال : (*كان الله ولا شيء معه ، كان في عماء ، ما تحته هواء ، وما فوقه هواء*) ما فوقـه هـواء يعلو عليه ، فما فوقه إلاّ الحقّ ، وما تحته هواء يعتمد عليـه ، بـل العرش الذي استوى عليـه الرحمن بعد إتمـام عمليّـة الخلـق في ستّة أيّام ، قـال تعـالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1]

فالعماء هو أصل الغيب ، وفي اللغـة العربيـة : العمـاء هـو السـحاب . وقـد أحَـبَّ الله أن يُعْرَف ، وفي الحـديث القدسيّ : (*كنتُ كنزاً مخفيّاً ، فأحببتُ أن أُعرفَ ، فخلقتُ الخَلْقَ فبي عرفوني*) ومعنى (بي عرفوني) أنّهـم عرفونـي عـن طريـق قدراتـي الـتي منحتهـم إيّاها. وقد أحبَّ الله أن يُعرف ليجود على العالم بالعلم به ، ولكنّه لا يُعْلَم من حيـث ذاتـه أو هويّته ، فهو : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[2]، وإنّما ليَعْلَم العالَم أنّه موجـود ، ولا شـريك له ، له الملك ، وأنّه الربّ ، وسواه الخلق.

ويمكن تشبيه العماء بظلمة الغيب ، أو النَفَس الإلهيّ ، أو بـالمرآة الـتي تنعكـس فيهـا الصور التي يتجلّى الله عليها ويعطسها الوجود ، أو بخزائن الجود التي تحـري علمـه تعـالى . فإذا تجلّى الحقّ تعالى لهذه المرآة – العماء – باسمه الربّ انطبع فيهـا مـا في العلـم الإلهـيّ مـن صور العالم وأعيانه ، يقول ابن عربي : (**العماء أصل الأشياء ، وهـو أوّل كثيـف شـفّاف نوريّ ظهر ، فلمّا تميّز عمّن ظهر عنه جعله الله ظرفاً لأنّه لا يكون ظرفاً له إلاّ عينه ، إذ لا يحيط به شيئاً ، فهو بذلك أوّل ظرف قبِلَه وجود الحقّ ، وهـو المعنى الـذي ثبتـت بـه واستقرّت أعيان الممكنات**)[3].

[1] – سورة هود ، الآية 7.

[2] – سورة الشورى ، الآية 11.

[3] – سأشرح أعيان الممكنات لاحقاً.

وأوّل ما ظهر في العماء أرواح الملائكة المهيمة با لله موجدها ولا تعرف سواه ، وبتجلٍّ خاصّ لواحدة من هذه الأرواح انطبع فيها ما في العلم الإلهيّ من صور العالَم ، وهو علم ما يكون من الأزل إلى يوم القيامة ، وهو ممّا لا تعلمه الأرواح المهيمة الأخرى . وسُمّيت تلك الروح **القلم** أو **العقل الكلّيّ** ، الذي تستمدّ منه العقول إمداداتها ، وقد يُسمّى **اللوح المحفوظ**.

ب - أسماء الله الحسنى :

يقول ا لله تعالى في كتابه الكريم : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾[1] وليست الأسماء شيئاً منفصلاً عن ا لله تعالى ، فإذا شبّهنا- للتقريب- ا لله تعالى بالنور ، فهي إشعاعات ذلك النور ، فكلّ شعاع يحمل صفة هي جزء من كلّ واحد غير منفصل يحمل ذات القدرة ، إنّما بصفة أو بتأثير يتميّز عن غيره . فمثلاً اسم رحيم هو ذات (راحمة) ، فالمسمّى بهذه التسمية هي عين تلك النسبة الجامعة بين الذات الإلهيّة والرحمة ، حتّى جعل عليها من هذه النسبة اسم فاعل ، وإن كانت التسمية جامدة ومطلقة ولا يُقصَد منها غير الذات الإلهيّة . وهكذا فالأسماء الإلهيّة هي **حقائق** ترمز إلى صفات ا لله وأفعاله وتؤثّر في الإنسان تأثيراً مباشراً ، يقول ابن عربي : **(وما من اسم إلاّ وله معنى ليس للآخر ، وذلك المعنى منسوب إلى ذات الحق ، وهو المُسمّى صفة عند أهل الكلام من النظّار ، وهو المسمّى نسبة عند المحقّقين . والنسب متميّزة بعضها عن**

---

[1] - سورة الإسراء ، الآية 110.

بعض ، أين الإرادة من القدرة من الكلام من الحياة من العلم بِاسم العليم ؟ وهي نسب وأسماء على حقائق معقولة[1] غير وجوديّة . فالذّات الإلهيّة غير متكثّرة بها لأنّ الشيء لا يتكثّر إلاّ بالأعيان الوجودية لا بالأحكام والإضافات والنسب ، فما من شيء معلوم إلاّ وله أحديّة بها يقال إنّه واحد)[2] والله واحد صمد ، لا يمكن لأسمائه أن تغيّر من معنى أحَديّة الله سبحانه وتعالى ، فإنّه سبحانه يتجلّى على قلب الإنسان بهذه الأسماء مع كلّ نَفَس يتلقّاه العبد ، أو بالاتّصال المباشر عن طريق قنوات ممتدّة مباشرة بين العبد والربّ (رقائق ممتدّة) صاعدة ونازلة ، الصاعدة تعطي حال العبد في كلّ لحظة واستعداده وما يتطلّبه من حاجة إلى اسم إلهيّ معيّن أو أكثر[3] ، والنازلة هي التحكّمات التي تؤثّر بها هذه الأسماء على العبد ، وبتغيير أحكام هذه الأسماء تتغيّر أحوال العباد ، فالألوهة تقضي أن يكون في العالَم بلاء وعافية ، فليس إزالة اسم **المنتقم** من الوجود بأولى من إزالة اسم **الغافر** أو **المنعم** ، ولو بقي من الأسماء ما لا حكم له لكان معطّلاً ، والتعطيل في الألوهة محال . وليس في أسماء الله تعالى ترادف ، وإنّها كلّها متباينة ، ولكلّ منها حكم وتأثير في الإنسان مختلف عن تأثير الاسم الآخر ، إنّما فيها الأسماء المتقابلة ، والمتضادّة ، والمتقاربة .

والعلم بالأسماء الإلهيّة واسع جدّاً يستطيع كلّ إنسان التعمّق به أو الاطّلاع عليه من خلال الدراسات المختلفة التي تطرّقت إلى هذه الموضوع ، وإنّما أختصر هنا ، وأقسّم الأسماء الإلهيّة إلى الأقسام الآتية :

- قسم يدلّ على الذات الإلهيّة .
- وقسم يدلّ على الصفات .
- وقسم يدلّ على الأفعال .
- وقسم مشترك يدلّ بوجه على صفة فعل وبوجه على صفة تنزيه .

---

[1] – من العقل.

[2] – الفتوحات المكّيّة ، ج4

[3] – مثلاً المريض الذي يدعو الله فيستجيب له باسمه الشافي.

1ً – قسم يدلّ على الذات الإلهيّة :

وهو اسم العَلَم الذي لا يُفهَم منه سوى ذات المسمّى ، وما أريد بـه اشتقاق ، ولا يدلّ على مدح أو ذمّ ، وهو اسم (ا لله) ، وأسماء الضمائر والإشارات ، وهي :

هـو : ضمير غيب مطلق يرجه إلى هويّته تعالى : ﴿لا يعلمها إلاّ هو﴾[1]

ذو : وقد جاء ذكره في كثير من سور القرآن الكريم ، منها قوله تعالى :

﴿ذو العرش المجيد﴾[2] .

إنّـا : كما في قوله تعالى : ﴿إنّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً﴾[3] .

نحن : كما في قوله تعالى : ﴿إنّا نحن نزّلنا الذّكر﴾[4] .

أنتَ : كما في قوله تعالى : ﴿فلمّا توفّيتني كنت أنت الرّقيب عليهم﴾[5]

2ً – قسم يدلّ على الصفات :

فهي تدلّ على الموصوف بها من طريق المعنى ، مثل : **الحيّ** و **العالِم** و **القدير** و **السميع** و **البصير** و **المريد** . فالحيّ ذات موصوفة بالحياة ، والقادر ذات موصوفة بالقدرة...

وهذه الأسماء هي ما سمّى ا لله بها نفسه سبحانه وتعالى في كُتُبه وعلى ألسنة رسله . وقد ورد في الصحيح : *(إنّ لله تسعة وتسعين اسماً)*[6] . أمّا إذا أخذناها من جهة المدح أو الاشتقاق فهي لا تُحصى عدداً .

---

[1] – سورة الأنعام ، الآية 59.

[2] – سورة البروج ، الآية 15.

[3] – سورة (يس) ، الآية 8.

[4] – سورة الحجر ، الآية 9.

[5] – سورة المائدة ، الآية 117.

[6] – حديث نبويّ شريف.

3ً – قسم يدلّ على الأفعال :

وهي أسماء الإرادة مثل : المصوّر و الرازق والفتّاح والغفور . يقول ابن عربي : (**إنّ أمّهات الأسماء الحسنى سبعة ، وهي الصفات الإلهيّة التي تجلّى بها الحقّ تعالى على القلب فقامت مقام صفاته ، وهي : الحيّ ، العالِم ، المُريد ، القادر ، القائل ، السميع ، البصير ، وهي بنات الاسمين : المدبّر والمفصّل . وما بقي من الأسماء فهي تحت طاعة هذه الأسماء**)[1]

4ً – قسم مشترك يدلّ بوجه على صفة فعل وبوجه على صفة تنزيه :

مثل اسم **الربّ** . فالربّ المالك ، والربّ السيّد ، والربّ المربّي ، والربّ الثابت . **والحليم** معنى يُعقل – بالعقل – ويطلق على مَن ظهر فيه حكم الحلم مع المقدرة . ومِنَ الأسماء ما هو حروف مركّبة ، وهي الموجودة في بدايات بعض سور القرآن الكريم ، ومنها كلمات مركّبة مثل **الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين.**

وقد علّم الله آدم جميع الأسماء من ذاته ذوقاً ، فتجلّى له تجلّياً كلّيّاً ، فعَلِم من ذاته جميع أسماء خالقه ؛ بينما الملائكة التي تسبّح بحمد الله فاتهم علم الأسماء ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا * سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾[2] وما أوجد الله العالَم إلاّ ليُظهر سلطان الأسماء ، فإنّ قدرةً بلا مقدور ، وجوداً بلا عطاء ، ورازقاً بلا مرزوق ، ومغيثاً بلا مُغاث ، ورحيماً بلا مرحوم حقائق معطّلة التأثير . فالعالَم محلّ ظهور أحكام الأسماء الإلهيّة . فالاسم الإلهيّ روح لأثره الذي هو صورته ، والبصر لا يقع من الاسم إلاّ على أثره أو صورته ، يقول ابن عربي : (**ليعلم الإنسان أنّ الله تعالى المسمّى بكلّ اسم إلهيّ ، وبها يظهر في**

---

[1] – الفتوحات المكّيّة ، ج1 ، ص100.

[2] – سورة البقرة ، الآيات 31 – 33.

عباده وبها يتلوّن العبد في أحواله . فهي للحقّ أسماء وفينا تلوينات . وهي عين الشؤون التي هو فيها الحقّ تعالى : ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[1] وأصغر يوم هو ما بين دخول النَفَس وخروجه في الإنسان . فالألوهة تقضي بأن يكون في العالَم بلاء وعافية ، فليس إزالة المنتقم من الوجود بأَوْلى من إزالة الغافر وذي العفو والمنعم ؛ ولو بقي من الأسماء ما لا حكم له لكان معطّلاً إنسان والتعطيل في الألوهة محال ، فعدم أثر الأسماء محال)[2].

ج - العقل الأوّل أو القلم

القلم هو أوّل موجود في الوجود الإمكانيّ الروحانيّ في ظلمة الغيب (العماء). والقلم عَقِلَ عن الله ما عَلِمَه ، وأمره أن يكتب ما علّمه في اللوح المحفوظ الذي خلقه منه . فهو نَفَس الربّ الذي نفخه في إحدى الملائكة المهيمة به ، حمّله بهذه النفخة جميع علوم الكون إلى يوم القيامة ، وقال له : (**اكتب ما كان وما قد علمته وما يكون مما أمليه عليك ، وهو علمي في خَلقي إلى يوم القيامة**). ومن هذه القوّة المستمدّة من الله تعالى علمت الروح أو العقل الأوّل أنّ هناك حقائق معقولات لأنها تميّزت عندها تنسب إليه تعالى وتسمّى الأسماء الإلهيّة ، وهي تحمل صفات الله ، وينسب إليها من نعوت الأزل ما يُنسَبُ إليه تعالى ، كما تنسب إلى الخلق ممّا يظهر من حكمها فيهم وتحكّمها بأحوالهم . كما رأى هذا العقل الأوّل روحانيّة الإنسان الكامل الذي هو ظلّ الله ويحمل صفاته وأسمائه[3] . وقد عَلِم هذا القلم أنّه من أجل الإنسان العاديّ الذي هو ظلّ الإنسان الكامل

---

1 - سورة الرحمن ، الآية 29.

2 - الفتوحات المكيّة.

3 - يطلق عليه ابن عربي اسم **الحقيقة المحمّديّة**.

أوجد الله تعالى العالَم ، وهذا الإنسان هو آخر مخلوق من حيث جسمه ، فهو آدم الذي خلقه بعد خلق أجسام الأكوان وأوّل مخلوق من حيث روحه ، وبه تجتمع حقائق الكون.

د - الإنسان الكامل

عرفنا أنّ أوّل ما ظهر في العماء هي أرواح الملائكة المهيمة با الله موجدها لا تعرف إلاّ هو . وبتجلٍ خاصّ من الله لإحدى هذه الأرواح خَلَق روحانيّة الإنسان الكامل ، وكان كالمرآة للحقّ ، ما كَمُل إلاّ بصورة الحقّ فيه لأنّه خلقه على الصورة ، فأعطاه صفاته وأسماءه ، وعرّف الملائكة بمرتبته وبأنّه الخليفة في العالم ، ومَنْ بعده مِنْ أمثاله خلفاء له . وعندما جعل الله الإنسانَ الكامل خليفته ونائباً عنه احتجب تعالى عن الأبصار والبصائر ، فكان تسبيح العالم لله طلباً للمشاهدة ، إنّما وحده الإنسان الكامل الذي يعبد ربّه من غير تسبيح لأنّ التّجلّي له دائم وحكم الشهود فيه لازم ، فهو يشهد الله سبحانه ، وهو أكمل الموجودات معرفة با لله ، يقول ابن عربي : (**إنّ له إلى الحقّ نظران ، ولهذا جُعِلَ له عينان ، ينظر بالعين الواحدة إليه من كونه غنيّاً عن العالَمين ، فلا يراه في شيء ، وينظر إليه بالعين الأخرى من اسمه الرحمن الساري في الوجود في كلّ شيء ، فهو يطلب العالَم والعالَم يطلبه ، فيفتقر بهذه النظرة إلى كلّ شيء من حيث أنّ هذه الأشياء مظاهر للحق**)[1] كما سخّر الله للإنسان الكامِل مَن في السموات ومَن في الأرض ، بما في ذلك الإنسان العاديّ – الحيوان الناطق – فهو المشارك للإنسان الكامل في الاسم والمُطالَب بالسعي إلى الكمال بالعلم والمعرفة .

فالغاية من الخَلْق هي وصول الإنسان الناطق إلى الكمال مستفيداً ممّا أعطاه له الله من قدرات (الأمانة) ومِن أسمائه الحسنى ، فقد أخذ الحياة والعلم والإرادة والقدرة ، من أسمائه تعالى الرئيسة **الحيّ** ، **العالِم** ، **المُريد** ، **القادر** . وعندما علم الإنسان الكامل أنّ العالَم مسخّر له علم فقره إليه ، فلولا حاجته إليه ما سُخِّر له ، فقام له هذا الافتقار مقام

---

[1] – الفتوحات المكيّة

الغنى الإلهيّ العامّ ، وبذلك تميّز العبد عن الربّ ، وإن كان ظلاً لـه ، فـالعبد فـقـير دائمـاً إلى ا لله الغنيّ عن العالَمين ، وبما أنّ العالَم مسخَّر للإنسـان الكامل بتأثير الأسماء الإلهيّـة فيـه فلم يفتقر هذا الإنسان إلاّ إلى ا لله بصورة أسمائه ، و إنّ ا لله سبحانه مـا سـخّر العـالَم لهـذا الإنسان الكامل إلاّ ليشتغل العـالَم بما كلّفهم به من التسخير عن طلب شـهود ا لله تعـالى ، فإنّ ذلك ليس لهم لأنّهم نازلون عن مرتبة الكمال . وإذا قلنا إنّ الإنسـان الكـامل ظـلّ ا لله فهو ممتدّ في الغيب الذي لا يمكنه الخروج منه[1] وامتداده هو استمرار البشريّة في الوجـود ، فإنّ باطن الإنسان لم يفارق الغيب ، فلا يعلم باطن الإنسان أبداً إلاّ ا لله ، بينما ظـاهره مـا امتدّ من البشريّة فظهر ، وهو استمراريّة وجـود الإنسان في الحياة ، والـتي لا يعلـم نهايتهـا إلاّ ا لله سبحانه وتعالى . وقد خلق ا لله الإنسان الكامل على صورته ونصّبه دليلاً على نفسه لمن أراد أن يعرفه بطريق المشاهدة ، وهذا غير ممكن ، بينما طلب من الإنسان العاديّ الـذي هو ظلّ الإنسان الكامل أو جزء منه أن يتعرّف إليه عن طريق عقله . وبطريق الفكـر الـذي أسماه طـريق الرؤية في آيات الآفاق يستدلّ منها على عظمة ا لله.

وان الكامل عرف ا لله (ذات وصفـات وأفعـال) فكـان خلقـه علـى الصـورة ، أي كذلك هو الإنسان : ذات وصفات وأفعال. و الإنسـان العـاديّ عـرف ا لله بدليـل عقلـه ، ولكنّه لم يعرف أم الكامل من جميع وجوهه لأنّـه جزء منه ، ولا يمكـن للجـزء أن يعـرف الكلّ . والملائكة لم تعرف الإنسان من جميـع وجوهـه لأنّ علـم الأسمـاء الإلهيّـة لم تعلمـه ، وهكذا جهل الكلّ الإنسان الكـامل ، وبالتـالي جهلـوا الحـقّ تعـالى ، فمـا عـرف الحـقَّ إلاّ الإنسانُ الكاملُ ، ولو لم ينصّب ا لله تعالى الإنسان الكامل لتتحقّق المعرفـة بـه المطلوبـة منّـا جميعاً لظهر بنفسه وذاته إلى خلقه حتّى يعرفوه على المشاهدة فـلا ينكـره أحـد . ومـا وقـع الإنكار إلاّ لـمَّا تقدّمهم النظر العقليّ وأفكارهـم المقيّدة بالحسّ ، فقيّدوه بالصفات والأفعال ، و لم يعرفوا الذات لأنّها مطلقة غير مقيّدة . وقـد نهانـا ا لله عـن التفكـير بذاتـه تعـالى لأنّ ذلك فوق حدود العقل .

---

[1] – أنّه روحانيّ وليس مادّيّاً.

ويطلق ابن عربي على الإنسان الكامل تسمية (الحقيقة المحمّديّة) وذلك اعتماداً على قوله ﷺ : *(أوتيتُ جوامع الكلِم ، وكنتُ نبيّاً وآدمُ بين الماء والطين)*[1] فهو حامل لمعاني الأسماء الإلهيّة وهو معنى (جوامع الكلم) . فمحمّد أبٌ لنا في الروحانيّة ، كما آدم أبٌ لنا في الجسمانية .

وقد جعل الله تعالى الأرض مسكن آدم لأنّه خلقه منها ، من عناصرها الأربعة : (الماء والنار والتراب والهواء) وكان خلق جسده متأخّراً في الوجود عن روحانيّته لأنّه جمع فيه ما في العالَم مختصراً ، فجميع العالَم برز من العدم إلى الوجود الإنسان الأوّل آدم وحده فإنّه ظهر من وجود مفرق إلى وجود جمع ، وقد ظهر الكمال الإلهيّ في المركّب لأنّه يتضمّن البسيط ، فالإنسان الكامل هو الأوّل في القصد والآخر بالفعل والظاهر بالحرف – من الكلام – والباطن في المعنى ، وهو الجامع بين الطبع والعقل ، ففيه أكثف تركيب (الجسم) وألطف تركيب (الروح) ، وفيه إمكانيّة التجرّد عن الموادّ والقوى الحاكمة على الأجساد بالفكر ، وليس ذلك لغيره من المخلوقات ، ولذا خُصّ بعلم الأسماء كلّها التي لم يُعَلِّمها الله لسواه . وبذلك تكون مرتبته فوق مرتبة الملائكة في المخلوقات ، ولا يدلّ ذلك على أنّه خير من الملائكة ، ولكنّه يدلّ على أنّه أكمل نشأة من الملاك ، فالكمال في الإنسان الكامل بالفعل (فعل الله) والكمال في العقل الأوّل بالقوّة (أمر الله) وما كان بالقوّة والفعل أكمل في الوجود ، ولذلك كانت الغاية من الوجود اجتماع القوّة والإرادة بالفعل عند الإنسان والاستفادة من العقل حتّى يتوصّل من خلال التّطوّر والاستمرار إلى الكمال بالقوّة والفعل معاً ، وهذا ما يُسمّى بالعبادة : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2].

---

[1] – حديث نبويّ شريف رواه ابن عربي في الفتوحات المكّيّة.

[2] – سورة الذاريات ، الآية 56.

هـ - النـفس الكـلّـيّـة

قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[1] وهـي النفس الكلّيّـة. وقـد تجلّى الحقّ تعالى للعقل الأوّل من الجانب الأيمن ، فرأى لذاته ظلاً في العماء ممتـدّاً مـن نـور ذلك التّجلّي ، هذا الظلّ يسمّى **النفس الكلّيّة** التي تمتدّ منها نفوس البشر الجزئيـة ، فـالعقل الأوّل مستفيد من الله تعالى مفيد للنفس ، والنفس مستفيدة من العقل وعنها يكـون الفعـل . وهذا سارٍ في جميع ما تعلّق به علم العقل بالأشياء التي دونه ، ولا سـلطان لـه علـى عـالَم الملائكة .

والنفس الجزئيّة لكلّ إنسان المدبّرة لجسمه يطلق عليها ابن عربي اسم (لطيفة العبـد) لم تظهر لها عين أو حقيقة إلاّ عند تسوية هذا الجسد وتعديله ، فحينئذٍ نفـخ فيـه الحـقّ مـن روحه ، فظهرت النفس الجزئيّة (لطيفته) وذلك في الشهر الرابع للجنين وهو في رحم أمّـه ، فظهرت نفسه الخاصّة به بين النفخ الإلهيّ والجسد المسوّى ، ولهـذا كـان المـزاج يؤثّـر فيهـا كما تؤثّر فيها أيضاً العوامل الوراثيّة لهذا الجنين ، فتفاضلت النفوس ولكنّها جميعاً مـن عـالَم البرزخ .

ويشرح لنا ابن عربي في محاورة رمزيّة علاقة النفس بالروح فيقول :

(قال الله تعالى له[2] عند ذلك التّجلّي الأقدس :

ما اسمي عندكَ؟

فقال : أنتَ ربّي .

فقال له سبحانه : أنت مربوبي وأنا ربّك ، أعطيتك أسمائي وصفـاتي ، فمـن رآك رآني ، ومن أطاعك أطاعني ، ومن علِمَك علِمني ومـن جهلكَ جهلني . فغاية مَن دونك أن يتوصّلوا إلى معرفة نفوسهم منك ، وغاية معرفتهم بك العلم بوجودك لا بكيفيّتـك . كذلك أنت معي لا تتعدّى معـرفة نفسك ولا ترى غيرك ولا يحصل لك العلم بي إلاّ من

---

[1] – سورة الأعراف ، الآية 189.

[2] – الهاء تعود على روح الإنسان الكامل.

حيث الوجود . ولو أحطتِ علماً بي لكنتَ أنت أنا ولـكـنـتُ محاطاً لكَ وكـانت أنيّـتي[1] أنيّتكَ ، وليست أنيتكَ أنيّتي ، فأمدّك بالأسرار الإلهيّة وأربّيك بها فتجدهـا مجعولـة فيـك فتعرفها ، وقـد حجبتـك عـن معرفـة كيفيّـة إمـدادي لـك بهـا ، إذْ لا طاقـة لـك بحمـل مشاهدتها ، إذْ لو عرفتها لاتّحدتْ الأنيّة ، واتّحاد الأنيّة محال ، فمشاهدتك لذلك محال . هل ترجع أنيّة المركّب أنيّة البسيط؟ لا سبيل إلى قلب الحقائق . فـاعلم أنّ مِـن دونـك في حكم التبعيّة لكَ ، كما أنت في حكم التبعيّـة لي ، فـأنت ثوبـي وأنـت ردائي وأنـت غطائي .

فقال له الروح : ربّي سمعتكَ تذكر أنّ لي مُلكاً فأين هو؟

فاستخرج له النفسُ منه ، وهي المفعول عن الانبعاث ، فقـال : هـذا بعضـي وأنـا كلّه ، كما أنا منك ولستَ مني . قال : صدقتَ يـا روحي ، قال : بك نطقت.

يا ربّي إنّك ربّيتني وحجبتَ عنّـي سرّ الإمـداد والتربيـة وانفـردتَ أنـت فـاجعل إمدادي محجوباً عن هذا المَلَك حتّى يجهلني كما جهلتكَ .

فخلق في النفس صـفة القبول الافتقار ووزّر لها[2] العقل إلى الروح المقدّس ، فقال لها : مَنْ أنا ؟

قالت : ربّي ، بك حياتي ، وبك بقائي .

فتاه الروح بمُلكه ، وقام فيه مقام ربّه فيه ، وتخيّل أنّ ذلك هو نفس الإمداد.

فأراد الحقّ أن يعرّفه أنّ الأمر على خلاف ما يتخيّل ، وأنّه لو أعطاه سرّ الإمـداد كما سأل لما انفردت الألوهة عنه بشيء ولاتّحـدت الأنيّـة . فلمّـا أراد ذلـك خلـق ا لله الهوى في مقابلته ، وخلق الشهوة في مقابلة العقل ، ووزّرها للهـوى ، وجعـل في النفـس صورة القبول لجميع الواردات عموماً ، فحصلت النفس بين ربّين قويّـين لهـما وزيـران عظيمان ، وما زال هذا يناديها و هذا يناديها ، والكلّ عنـد ا لله تعـالى ، قـال تعـالى :

---

[1] – من الأنا.

[2] – أي جعل لها وزيراً.

﴿قل كلٌّ من عند الله﴾[1] و ﴿كلاً نمدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك﴾[2] ، وهـذا كـانت النفس محلّ التغيير والتطهير ، قال تعالى : ﴿ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها﴾[3] فإن أجابت منادي الهوى كان التغيير ، وإن أجابت منـادي الـروح كـان التطهـير شـرعاً وتوحيداً . فلمّا رأى الروح ينادي ولا يسمع مجيباً ، فقال : ما منـع مُلْكـي مِـنْ إجـابتي؟ قال له الوزير : في مقابلتكَ ملكٌ مطاع عظيم السلطان يُسمّى الهوى ، أعطيتـه معجّلـة الدنيا بحذافيرها فبسط لها حضرتـه ودعاهـا فأجابتـه . فرجـع الـروح بالشـكوى إلى الله تعالى ، فثبتت عبوديّته ، وذلك كان المراد)[4] النصّ نقلته عن ابـن عربـي كمـا هـو ، وهـو محاورة رمزيّة واضحة العبارة والمعنى.

و - الـهـبـاء

قلنا إنّ البرزخ بين عالَمين له وجه إلى العالَم الأوّل ووجه إلى العالم الثاني ، فكلّ مـا تقدّم شرحه هو وجه البرزخ الأعلى إلى العالَم الروحانيّ ووجـه إلى العالَم المـادّيّ المحسـوس يُسمّى الهباء . فالهباء جوهر خلقه الله تعالى بعد خلـق القلم أو العقل الأول والنفس الكلّيّـة ، قال تعالى : ﴿فكانت هباءً منبثاً﴾[5] فقد انبثت في تركيب خلايا المادّة ، فكانت الصلـة بين روح كلّ خليّة أو ذرّة مع مادّتها (بل هي روحها) ، فهي منبثّة في جميع صور الطبيعة .

---

[1] – سورة النساء ، الآية 78.

[2] – سورة الإسراء ، الآية 20.

[3] – سورة الشمس ، الآيتان 7 و 8.

[4] – الفتوحات المكّيّة.

[5] – سورة الواقعة ، الآية 6.

والهباء – بحسب مفهومنا العصريّ – هي الهيولى أو مادّة الخليّة الأصليّة أو نواتها ، وهي الدائرة التي تجمع العالَمين البسيط والمركّب . وقد عيّن الله تعالى بين النفس الكلّيّة والهباء أربع مراتب ، وجعل لكلّ مرتبة منزلاً لأربعة ملائكة ، وجعلها – كالولاة – مسؤولة عمّا أحدثه سبحانه من العالم دونها.

هنا ينتهي الحديث عن البرزخ الأعلى الذي يتوسّط عالَم الأمر وعالَم الخَلْق. عالم الأمر الذي هو عالم الأرواح الذي وجد عن أمر الله (كن) ، وعالم الخَلْق الذي خلقه الله تعالى أطواراً[1] .

[1] – سيأتي لاحقاً شرح له.

الأعيان الثابتة والمُمكنات

عندما نقول عن شيء إنّه (عين) ذلك الشيء فإنّ معنى ذلك أنّ لدينا نسختين متطابقتين تماماً لشيء واحد . وهذا هو المعنى اللغويّ لكلمة (عين) في هذا المجال . وكلّ إنسان يدرك أنّه فرد لا يمكن أن تكون له نسخة أخرى ، ولا يمكن لإنسانين أن يكونا متطابقين في جميع صفاتهما وأحوالهما ولو كانا توأمين. وهذا من عظمة ربّنا وقدرته تعالى. ولو فكّر الإنسان بحقيقته وأراد أن يعرف جوهره الحقيقيّ أو هويّته الداخليّة الثابتة التي لا تتغيّر بتغيّر مظهره الخارجيّ ، والذي يعرفها هو عن نفسه ، سيدرك أنّ جسمه المتغيّر مع مرور الزمن لا يمثّل جوهره الأصلي ، وأنّ ما يظهر منه تابع لما يراه الآخرون فيه وليس لما هو عليه حقّاً. فحقيقته هي ما يعرفه عن نفسه وما يعرفه الله تعالى عنه ، أي هي السرّ المشترك بينه وبين ربّه ، وهي حقيقته الداخلية الثابتة في جوهرها لا تتغيّر مهما تغيّرت عليه ظروف الحياة ، ومهما كانت الأقنعة التي يلبسها في حياته. وهذا الجوهر وهذه الحقيقة يسمّيها ابن عربي (عينه) أي لكلّ إنسان – بل لكلّ شيء – عين ثابتة هي التي خلقها الله تعالى ، وتمثّل حقيقة هذا الإنسان أو الشيء ، يقول الله تعالى : ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ

﴿ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[1] ، ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[2] .
فهناك شيء غير موجود يتوجّه إليه الله تعالى ويخاطبه بلفظة (كن) فيمنحه الوجود فيكون ، أي ينتقل من العدم إلى الوجود .

هذه الأشياء – وهي كلّ شيء سوى الله تعالى – أي كلّ ما خلق الله بأمر (كن) ، وهي ملكوت أو روحانيّات الأشياء ، ومن بين هذه الأشياء ملكوت الإنسان ، ونسمّيها (ممكنات) لأنّها تجمع بين إمكانيّة وجودها وإمكانيّة عدمها . فعندما أعطاها الله سبحانه وتعالى ، بلفظة (كن) ، وجودها ، فوجدت أثبتت أنّ لديها القابليّة للوجود ، وهو (إمكان وجودها) وإمكان عدمها كونها أصلاً في العدم . وعندما يزول عنها الوجود تعود إلى العدم ، فسمّاها لذلك ممكنات[3] . فَعين الممكن هي النسخة الأصليّة لذلك الممكن أو جوهره الحقيقيّ ، وهي مرادفة لوجود الله في الأزل ، ولها قوّة السمع فتسمع الأمر بالتكوين (كن) لاستعدادها للقبول ، فتسارع بالقبول عندما يتجلّى عليها ربُّها ، فيزول العدم ، وتُفتَح لها الرؤية بعد السمع ، فترى ربّها الذي يتجلّى عليها باسمه النور ، فيظهرها ، وترى العدم على يسارها الذي خرجت منه والنور على يمينها ، وترى نفسها كالظلّ المنبعث من الشخص في مقابلة النور . يقول ابن عربي : (**فالممكن بين النور والظلمة لكلّ منهما إليه وجه ، والعدم في الممكن أقوى من الوجود ، لأنّ الممكن أقرب إلى العدم منه إلى الوجود ، ولذلك سَبَقَ بالترجيح على الوجود في الممكن. فالعدم حضرته لأنّه الأسبق ، والوجود عارض له ، ولهذا يكون الحقّ خلافاً على الدوام ، لأنّ العدم يحكم على صور الممكنات بالذهاب ، والرجوع إليه رجوع ذاتيّ. فحكم العدم يتوجّه على ما وجد من الصور ، وحكم الإيجاد من واجب الوجود (الله) يعطي الوجود دائماً عين صورة بعد عين صورة . فالممكنات بين إعدام وإيجاد ، والمرجِّح هو الله تعالى. ولولا أنّ الله تعالى يعطيها الوجود باستمرار لعادت إلى العدم ، لأنّ كلّ**

---

[1] – سورة النحل ، الآية 40.
[2] – سورة (يس) ، الآية 82.
[3] – جمع ممكن.

إمكانيّاتها إنّما من الله الذي يحفظ عليها وجودها بما يخلــق فيهـا ممّا فيـه بقاؤهـا . فإذا تقدّم أحد الممكنات على غيره في الوجـود فإنّ الترجيح تمّ بحسـب مـا تقتضيه المراتـب التي عيّنها سبحانه وتعالى للعالَم)[1] بهـذا الكـلام يفسّـر لنـا ابـن عربـي (أعيـان الممكنـات) وكيف يكون الخلق مسـتمرّاً لها ومتكرّراً ، قال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[2] فعنـــدما يتوجّــه الله سبحانه إلى عـين الممكـن الموجـودة في العـدم يمنحهـا الوجود ، فإذا فرضنا أنّ هذا الممكن إنسان ما فإنّ عينه أو جوهره الحقيقـيّ أو باطنـه الـذي كان في العدم قبـل خلقه[3] منحه الله في اللحظة التي تجلّى به عليــه الوجـود فأعطـاه صـورة روحانيّة أسكنها جسد هذا الإنسان بعد تسويته بنفخ الروح فيه . ولكن العدم يجذب هــذه العين إليه لأنّها من طبيعته ، ولولا القدرة التي منحها الله فيه بنفـخ الـروح مـع كـلّ نَفَـس لبقيت في العدم. هذه القدرة تستمدّها من نفخ الروح الإلهيّ فيها وإعطائها ما يحفـظ عليهـا بقاءها من خلال التجلّي الإلهيّ المتكرّر مع كلّ نَفَــس لهذا الجسـد ، إذ إنّ الله تعـالى يعيـد إحياء ذات العين ، فيخلق فيها ما يحفـظ بقاءهـا إذا أراد لهـا البقـاء ، فتخلَـق بذلـك خَلْقـاً جديداً ، وهكذا يستمرّ الخلق الجديد للإنسان مع كلّ نَفَس يتلقّاه يجيء ذلك النَّفَس جسده بتغذيته بالأكسجين اللازم له ويُحْيي روحانيّته بما يمدّهـا بـه مـن القـدرة علـى الاسـتمرار ، ويخلق في ذات العين أشياء أخرى لا أعيان لها منسوبة إليهـا ، وتعتمـد عليهـا في الظهـور ، كالألوان والأعراض .

والممكنات – وهي كلّ ما سوى الله تعالى – لهـا أعيـان[4] ثابتـة قبـل أن توجـد . والعين للشيء – كما قلنا – هي أصل جوهره وهويّته وحقيقته في أصل تكوينه الـتي يتميّز بها عمّن سواه . و الإنسان من جملة الممكنات التي لها أعيـان ، فعينه هويّته التي تحـوي كـلّ

---

[1] – الفتوحات المكّيّة

[2] – سورة الروم ، الآية 11.

[3] – كان في خزائن الجود.

[4] – جمع عين.

المعلومات المتعلّقة به ، وليس له يد في أيّ بند منها ، فهي تمثّل مرتبة إمكانه واستعداده ، وقد اختلفت هذه المراتب باختلاف هويّات الأفراد وأعيانهم . ولا يُطلَب من أي إنسان أكثر من استعداده ، وقد قال تعالى : ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1] فأعيان الممكنات موجود ثابت في العماء أو في خزائن الجود أو في (خيال الذات الإلهيّة) – إن جاز التعبير – وهو أقرب إلى الفهم والتّصوّر . فالعالم كان موجوداً في الخيال الإلهيّ وهو علمه تعالى ، وانتقل إلى الوجود عن طريق التجلّيات الإلهيّة ، وكان إلقاء الضوء عليه باسمه النور : ﴿اللهُ نورُ السّموات والأرض﴾[2] ثمّ تجسّد في المادّة وكان روحاً لها .

ولكن لماذا سمّيتْ هذه الممكنات أعياناً ثابتة ؟ إنّها كذلك لأنّها ثابتة في العماء أو في خزائن الجود ، و لم تبرح مكانها[3] . وكما قلنا إنّها النسخة الأصليّة للشيء ، موجود ثابت لا يتغيّر مهما طرأ على هذا الشيء من تحوّلات . وظهورها إلى الوجود كان بانعكاس صورتها الثابتة الروحيّة على مرآة العالَم (العماء).

وهكذا نلخّص الأمر بأنّ :

العماء هو بدء الوجود ــ الأعيان الثابتة هي ظلّ الوجود ــ والموجودات هي ظلّ ظلّ الوجود. فالأمر كلّه ظلٌّ ، يفسّره قول الله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً﴾[4] فمدّ الظلّ هو إظهار أعيان الممكنات وهو الوجود الظاهر الخارجيّ الذي يظهر به كلّ شيء ، وهي عمليّة الخلق المستمرّ ، فالظلّ لا زالا يمتدّ ، وإعطاء الحياة للمادّة بحلول الروح فيها لا زال مستمرّاً ، ولو شاء الله لجعله ساكناً و لم يظهره ، أي أبقاه في العدم الذي هو خزانة

---

[1] – سورة البقرة ، الآية 286.

[2] – سورة النور ، الآية 35.

[3] – في الحقيقة ليس للأعيان مكان محدد لأنّها ليست مادّيّة وإنّما هي في عالَم الغيب دون تحديد المكان.

[4] – سورة الفرقان ، الآيتان 45 و 46.

وجوده . وما ليس له وجود باطن في خزانة علم الحقّ وغيبه لم يكن موجوداً أصلاً في الظاهر ، وليس له وجود . فالإيجاد هو انتقال من الباطن إلى الظاهر ، والإعدام هو العكس : الانتقال من الظاهر إلى الباطن . والمرجّح هو الله سبحانه وتعالى الذي يرجّح في كلّ آن إمّا الظهور بإعطاء المادّة الحياة ، أو العدم وعودتها إلى أصلها .

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴾[1] فهي شمس العقل الذي يستدلّ من وجود الظلّ إلى أنّ حقيقته غير موجودة ، وأنّه ظلّ فقط ، فحقيقته باطنة ، ولا يوجد بالظاهر إلاّ الظلّ ، وهي المادّة المحسوسة للأشياء . فبالعقل نعرف أنّ هذه المادّة ليست شيئاً قائماً بذاته ، وأنّ وجودها يدلّ على مَن أوجدها ، فهي ظلّ له.

﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً ﴾[2] بإفنائه وانتقاله من حالٍ إلى حال . والقبض دليل على أنّ الإفناء ليس إعداماً محضاً ، بل هو منع من الانتشار ، فهو في قبضته ، وهو الحافظ لحقيقته أزلاً ، وما يطرأ سوى الاستحالات ، أي التحوّل من حال إلى حال أخرى. فالعالَم في حقيقته عَرَض زائل ، أي في حكم الزوال ، وهو قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾[3] ، والهاء تعود للأعيان – للشيء – ، فوجه الشيء عينه وحقيقته الثابتة ، وما عداها زائل ، وقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم *(كل شيء ما خلا الله باطل)* أي ما له حقيقة يثبت عليها من نفسه (قيّوميّة) ، فما هو موجود إلاّ بغيره ، أي لا يمكن لأيّ شيء أن يُخْلَقَ ويقوم بنفسه دون قدرة الله تعالى ، فلإذا زالت عنه القدرة التي منحها الله له هلك.

[1] – سورة الفرقان ، الآية 46.

[2] – سورة الفرقان ، الآية 46.

[3] – سورة القصص ، الآية 88.

فالجوهر الثابت هو العماء ، والعالَم هو جميع ما ظهر من الصور في العماء ، فهي أعراض[1] فيه ، ولا تقوم بذاتها ، إنّما حكمها يظهر بظهور الجوهر لنفسه عندما أبرزه الحقّ من غيبه ، فتبعتها هذه النسب ، وهي : (الكمّ والكيف والأين والزمان والمكان والإضافة وأن ينفعل وأن يفعل) ، وهي نسب تزول بزوال العين ، والممكنات التي نسبتها من العماء نسبة الصور من المرآة تظهر فيها . وقد قلنا إنّ الإنسان هو من الممكنات ، فهو – لذلك – زائل ، وتبقى حقيقته أو جوهر عينه الثابت ، وفيه ما اكتسبه من المعرفة التي تحملها نفسه وروحه العائدة إلى مصدرها ، وهي أعراض فيه : ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2].

[1] – العَرَض هو نسبة لا عين لها منسوبة إلى شيء آخر.

[2] – سورة (يس) ، الآية 83.

التّسبيح

قال تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾[1] ومعنى التسبيح لغةً هو الحركة المستمرّة التي ترمز إلى الحياة ، لأنّ السكون هو الموت أو العدم ، وقد خلق الله العالَم للتسبيح بحمده سبحانه .

وتسبيح العالَم لله ذاتيّ ، كالنّفَس للمتنفّس ، لا ينقطع طرفة عين ، وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم :*(إنّ الله احتجب عن البصائر كما احتجب عن الأبصار ، وإنّ الملأ الأعلى يطلبونه كما تطلبونه أنتم)* ، فكما لا تدركه الأبصار كذلك لا تدركه البصائر ، وهي العقول ، فتعجز عن إدراكه بأفكارها ، أي إنّ التسبيح هو نتيجة الاحتجاب عن المشاهدة وسعي الكلّ للحصول عليها ، فكلّ شيء في العالَم فطره الله على المعرفة بوجوده لما خلقه . وهذه المعرفة هي نور الفطرة ، وهو يسبّح ربّه باستمرار .

---

[1] – سورة الإسراء ، الآية 44.

فالجماد يسبّح ربّه بالحركة المستمرّة لذرّاته بحسب قوانين الفطرة ، أمّا الحيوان فقد فطره الله تعالى على العلم به ونطقه تسبيحه نتيجة هذا العلم وجعل له بجانب ذلك الشهوة التي لم تكن للجماد ، وهي الغريزة . وأمّا الملائكة فقد فطرها الله على المعرفة والإرادة لا الشهوة ، كما أخبر أنّهم لا يعصونه . ولولا الإرادة التي لهم ما أثنى عليهم بأنّهم لا يعصونه ويفعلون ما يؤمرون .

أمّا الإنس والجنّ[1] فقد فطرهما الله على المعرفة والشهوة التي لها تعلّق خاصّ بالإرادة لأنّها إرادة طبيعيّة ، وليست إرادة إلهيّة كالملائكة ، وأعطاهم العقل ليردعوا الشهوة ولاكتساب العلم ، وبذلك كانوا مكلّفين ومسؤولين عن أعمالهم وأفكارهم وشهواتهم .

وتسبيح الإنسان لله على قسمين :

1. تسبيح ذاتيّ مثل كلّ المخلوقات .

تسبيح إراديّ ، وهو العبادة : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2] .

وهكذا كلّ عالَم يُسبِّح ربَّه بطريقته الخاصّة .

يقول ابن عربي : **(كل صورة طبيعيّة لها روح إلهيّ يلازمها ، فتسبّح الله بهذه الروح . فإذا كانت الصورة تتّصف بظاهرة الحياة والموت فإنّ روحَها روحُ تسبيح لا روح تدبير)**[3].

والأرواح جميعها التي تسبح ربّها تتفاضل بعلمها ومعرفتها ، ومن ثمّ بتسبيحها لأنّه مرادف لعلمها . فأرواح الملائكة والجماد أكثرها عِلماً با لله لأنّها لا عقل لها ولا شهوة ، فتسبيحها ذاتيّ ، ثمّ تأتي أرواح النبات وتسبيحها ذاتيّ أيضاً ، ثمّ تأتي أرواح الحيوان فتسبيحها ذاتيّ متعلق بالشهوة والغريزة ، ثمّ أرواح الإنس والجنّ التي يضاف إليها العقل

---

[1] – وقد سمّاهما القرآن الكريم (الثقلين) بقوله تعالى : ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ (الرحمن :31).

[2] – سورة الذاريات ، الآية 56.

[3] – الفتوحات المكّيّة

والشهوة ، لأنّ المعرفة للإنس والجنّ عن طريق صورهم لا عن طريق أرواحهم ، أي مستفيدين من حواسّهم ومن مادّتهم ، وعلى هذا الأساس يكون تسبيحهم ذاتيّ وإراديّ ، فقد جعل الله لهم العقل ليردّوا الشهوة إلى الميزان الشرعيّ ، يقول ابن عربي : (**إنّ كلّ عالَم يُسبّح الله تعالى على قدر علمه بنفسه ، فينزّهه من كلّ ما هو عليه ذلك العالَم ، وإذا كان كلّ ما هو عليه ذلك العالم مُحدَث فينزّه الحقّ عن قيام الحوادث له – وهي الحوادث المختصّة بذلك العالَم – ولهذا يختلف التسبيح للحقّ باختلاف المنزّهين ، فيقول العَرَض مثلاً : سبحان مَنْ لا يفتقر في وجوده إلى محلّ يكون ظهوره به . ويقول الجوهر : سبحان مَنْ لا يفتقر في وجوده إلى موجد يوجده . ويقول الجسم : سبحان مَنْ لا يفتقر في وجوده إلى أداة تمسكه (روحه) . و الإنسان الكامل يسبّح الله بجميع تسبيحات العالَم لأنّه نسخة من العالَم مجتمعاً** . بهذا الشرح يمكننا أن نعرف التسبيح بأنّه شوق الروح إلى العودة إلى مصدرها بالتّغنّي بصفات ربّها وتنزيهه عن صفات ما سواه ، إذ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾[1] سبحانه .

والتسبيح وذكر الله كثيراً يقرّبان الإنسان من الله تعالى ، ويقوّيان محبّته له ، فالإنسان العاديّ إذا أحبّ أحداً أو شيئاً فإنّه لا ينفكّ يذكره ، وتبقى صورته تشغل خياله وتستحوذ على تفكيره . فانشغال فكر الإنسان المستمرّ بغير الله سبحانه وتعالى يُعْتبر شِركاً خفيّاً ، لأنّه يشرك غير الله في محبّته التي يجب أن تكون خالصة لله تعالى ، وبذلك يكون ذاك المحبوب المنشغل فكره فيه ربّه الذي يعبده بهذه المحبّة ، فيشغله عن عبادة الله تعالى ربّ العالمين.

[1] – سورة الشورى ، الآية 11.

العبوديّة والعبادة

كلّ مولود إنّما يولد على الفطرة . والفطرة : الإقرار لله تعالى بالعبوديّة ، فهو طائع بالأصل . فعندما قال ا الله تعالى لكلّ عين يريد الحق وجودها من الممكنـات : ﴿كُنْ﴾ سارع الممكن إلى التكوّن ، فكان ؛ أي ظهر منه عنـد نفسـه السـمع والطاعـة لمن قـال لـه ﴿كُنْ﴾ . فأوّل أمر كان من الممكن السمع والطاعة ، وهذا معنى أنّه طـائع بـالأصل . كما إنّ ا الله ما خاطب عباده إلاّ بقدر ما جعل فيهم من القبول لمعرفة خطابه باستعدادهم ، ولذلك يتنوّع خطابه بحسب تنوّع خلقه ، ثمّ يتّسع ليعمّ كلّ شيء .

والسعيد من العباد مَن حال ا الله بينـه وبـين ربوبيتـه[1] وأقامـه عبـداً في جميـع أحوالـه وأحيانه ، يخاف ويرجو ، ويُخاف ويُرجى . وبذلك عَرَف العبد أن لا فـاعل إلاّ ا الله ، لأنّ من البشر مَن ادّعى الاستطاعة وشقي لادّعائه هذا . فا لله أعطى صفاته التي تحملهـا أسمـاؤه الحسنى إلى عبده الإنسان ليعمل بها بالنيابة لا بالأصالة ، إنّما العمل له تعالى . فللإنسان لـه

[1] - أي ، أن يصبح العبد ربّاً.

في باطنه قوّة (كن) ، وما له منها في ظاهره إلاّ الانفعال تمّ العمل، ولكنّه يعمل باسم ا لله :

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ليسلم من مشاركة الشيطان الذي يشاركه في العمل .
والعبد مأمور باتّقاء الشيطان من المشاركة هذه باسم ا لله .

كما إنّ غاية وجود الغنى في العبد أن يستغني با لله عمّن سواه ، ولكنّ العارف با لله يعرف أنّ كلّ ما سوى ا لله عبدٌ له ، فهو إذا افتقر إلى شيء فإنّه ما يفتقر بذلك إلاّ إلى ا لله تعالى . والغنى – وإن كان با لله – فهو محلّ الفتنة والاختبار لعبوديّة الإنسان لأنّه يعطي الزهوّ على عباد ا لله تعالى ، ويورِّث الجهل بالعالَم وبنفسه . أمّا العبد المتوكّل على ا لله فإنّه لا يشتمّ رائحة ربوبيّته في نفسه بالزهو على العباد ، بل يشغل نفسه بالتصفية والتزكية . فهو لا يغفل عن مشاهدة عبوديّته وافتقاره إلى ا لله في جميع أحواله ، وبذلك ينوّر ا لله بصيرته إمّا بالعلم من لدنه وإمّا بالإيمان والتسليم لما جاء به الخبر عن ا لله وكتبه ورسله ، فتلك هي العناية الكبرى والسعادة العظمى .

يقول ابن عربي : (**لّما كانت طبيعة الممكن قبلت الوجود فظهر في عينه بعد أن لم يكن ، سمّاه خَلْقاً : مِنَ الخليقة ، وهي طبيعة الأمر وحقيقته – أي مطبوعاً على الصورة ، وهي خليقته . ولّما أوجده ا لله على صورته وأوجده لعبادته فكان ما أوجده عليه خلاف ما أوجده له ، فقال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1] فاشترك الجنّ والإنس فيما وجد له – العبادة – لا فيما وجد عليه ، وهو الصورة الإلهيّة للإنسان .**

ولّما كانت صورة الحقّ تعالى تعطي أن لا تكون مأمورة ولا منهيّة لعزّتها ، سرت هذه العزّة في الإنسان طبعاً ، فعصى ظاهراً وباطناً من حيث صورته لأنّه على من لا يقبل الأمر والنهي .. ألا ترى أنّ إبليس لّما لم يكن على الصورة لم يَعْصِ ا لله باطناً ، فيقول للإنسان : اكفرْ ! فإذا كفر يقول إبليس : إنّي أخاف ربّ العالَمين . وما استكبر

[1] – سورة الذاريات ، الآية 56.

إلاّ ظاهراً ، وعلى آدم فقط ، فقال : ﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً ﴾[1] وقال : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ﴾[2] أي أقرب إليك من هذا الذي خلقته من طين ، فقد خلقتني من نار ، والنار أقرب في الإضاءة النورية إلى النور ، والنور اسم من أسماء ا لله ، والطين ظلمة محضة .

وجهل إبليس ما فُطِر آدم عليه في أن تولّى ا لله خلقه بيديه كمالاً للصورة الإلهيّة التي خُلِق عليها . ولم يكن عند إبليس ولا الملائكة من ذلك ذوق ، فاعترض الكلّ : الملائكة بما قالت وإبليس بما قال)[3] .

إنّها فكرة رائعة تلك التي شرحها هنا ابن عربي ، فمعصية الإنسان بما خُلِق عليه – أي الصورة الإلهيّة – والعزّة والكبرياء والعظمة ، وكلّها صفات موجودة في نفسه لأنّه على الصورة . بينما طاعته بما خُلِق له – العبادة – وهي التذلّل للعزّة الإلهيّة والفقر إليه تعالى . ولذلك حصل الصراع داخل نفسه ، وظهرت التناقضات في تصرفاته ، ولهذا أيضاً عليه أن يتّبع الصراط المستقسم توخّياً للعدالة والتوازن .

وإبليس محجوب عن الذات الإلهيّة وصفاتها ، فشهوده للأفعال فقط ، وتعظيمه لها ، ولذا أقسم إبليس بعزّته تعالى ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[4] وقوله : ﴿ وَلَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾[5] أي أعترض لهم في طريقهم ، وأبعدهم عن طريق أفعال التوحيد ، وأمنعهم من سلوكها بأن أشغلهم بسواك[6] . ولم يعرف أنّ للنفس البشريّة صفات تعبّر عن أحوالها التي تتغيّر مستمدّة من صفاته تعالى الإلهيّة ، وأنّ **(أحوال العباد جالبة لظهور أوصاف الحقّ عليهم ، فما أعدّوا له نفوسهم موهوب لهم من عند ا لله)**[7] ، قال تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ﴾[8]، أي اطلبوا من ا لله تعالى ستر صفات نفوسكم الضعيفة

---

[1] – سورة الإسراء ، الآية 61.
[2] – سورة الأعراف ، الآية 12.
[3] – الفتوحات المكّيّة
[4] – سورة (ص) ، الآية 82.
[5] – سورة الأعراف ، الآية 16.
[6] – أي بما سوى ا لله سبحانه.
[7] – الفتوحات المكّيّة.
[8] – سورة المزّمل ، الآية 20.

الخاضعة لعالَم التضادّ واختلاف الطباع ، وقالوا ﴿ وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾[1] أي مغفرة تستر صفاتنا ورحمة تمحو ضفاتنا ، فنتّصف بصفاتك ، وتتنوّر ظلماتنا بأنوارك ؛ لأنّ بلايا النفوس هي الامتحان للإنسان ، والتخلّي عنها يكون بالمجاهدة ، وبعد التخلّي عن صفات النفس الإنسانيّة يكون التحلّي بصفات الله عن طريق أسمائه الحسنى ، ويتبعه التجلّي وهو الفهم والإدراك عن الله سبحانه : فالتخلّي.. ثمّ التحلّي.. ثمّ التجلّي.

[1] - سورة آل عمران ، الآية 8.

عالم الخـــلق
أو عالَم الملك

ترتكز أفكار ابن عربي وفلسفته على شرحه لعمليـة خلـق ا لله تعـالى الكـون ، وقـد كرّر هذا الشرح ، وبأساليب متعدّدة ، منها غامض ومنها واضح ، ومنها شعر ومنها نثر ، وفي أماكن متعدّدة ومتكرّرة في كتابه (الفتوحات المكّيّة) وهو يعطي من خلال هذا الشـرح تعريفاً لمفاهيم كثيرة وتعابير وردت في القرآن الكريم ، مثـل : العـرش والكرسـي والأفـلاك والسموات والأرض... الخ.

ورغم حرص ابن عربي على أن يكون موضوعيّاً في كلّ ما يتطـرّق إليـه مـن أفكـار ولكنّه هنا يقرّر أنّ معرفته هذه وأفكاره لا تعتمد على الـبراهين الحسّيّة أو العقليّـة ، وإنّمـا هي واردات وردت إلى فكره وأدركها كشفاً ثمّ مشـاهدة في الخيـال ، ويسـمّيها **فتوحـات** فتح ا لله عليه بها بصيرته ، وعلى مَنْ لم يتذوّقها أن لا ينفيهـا ، فلكـلّ إنسـان ذوق خـاصّ يكشف به ا لله تعالى عن بصيرته ويعلّمه علماً حسب اسـتعداده الخـاصّ بـه ، ولـه الحـقّ في

قبول أو نفي آية فكرة لا تناسبه ، فـ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاّ وُسْعَهَا﴾[1] . والملاحظ أنّ هذه الأفكار والمعلومات لا تتنافى والعلم ، إنّما تكون -أحياناً- قفزات فوقه بحسب التسلسل الزمني أو سيراً لأعماقه.

وقد بيّنتُ في شرح مفهوم "البرزخ" و"الأعيان الثابتة" و"الممكنات" القسم الأوّل من عملية الخلق التي يشرحها ابن عربي ، وهي خلق "عالَم الأمر" ، الذي خلقه الله تعالى بالأمر (كن) ، وهو عالَم الأرواح أو الملائكة أو الملأ الأعلى ، وهو - أيضاً - عالَم المعقولات ، أي الأشياء التي يعقلها الإنسان بعقله ولا يمكنه مشاهدتها.

وكان الخلق على مستويات ، ابتدأ بالبرزخ الأعلى و"عالَم الملكوت" ثمّ أتبعه بـ"عالَم الخلق" وهو العالم الذي كان خلقه متتابعاً وعلى مراحل ، وقد خلقه الله تعالى بالفعل لا بالأمر (كن) ، وهو العرش والكرسيّ والأفلاك والسموات السبع ، وانتهى بالأرض وما عليها ، وكان آخر خلقه بالفعل جسد الإنسان "آدم" ، فهو يجمع ويختصر كلّ العالَم الأكبر ، أي كان الانتقال من خلال عمليّة الخلق من المعاني التي هي أصل الأشياء ، وقد كانت غيبية معقولة في العقل ، إلى أن ظهرت في مجال الحسّ محسوسة ، أو في مجال الخيال صوراً متخيّلة ، وكان ظهورها نتيجة مقدّمات تتشابك تنتج عنها نتائج ، أو أسباب و مسببات أو فاعل ومنفعل ، وقد قال الله تعالى : ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[2] يشرح ابن عربي هذه الآية ويفسّر لنا خلق الكون بصور متباينة وفي أماكن

---

[1] - سورة البقرة ، الآية

[2] - سورة فُصّلت ، الآيات 9 - 12.

مختلفة في كتابه (الفتوحات المكّيّة) ، وفي كلّ مرّة يشرحها بطريقة أو بأخرى ، سعياً وراء توضيح الصورة الغامضة المجرّدة وتسهيل عمليّة فهمها واستيعابها ، وأنا أحاول أن أوجز – قدر الإمكان – شرحه وتفسيره بما يأتي :

1– بعد أن علّم آدم الله آدمَ الأسماءَ الإلهية ، وانتهى من خلق عالَم الملكوت ، وهو عالَم الأمر ، توّجه بأربعة أسماء رئيسة من أسماء الله الحسنى ، والتي هي ذاته ، إلى إيجاد العالَم المادّيّ ، وهي : **الحيّ** ، **العالِم** ، **المريد** ، **القادر** وهذا العالَم محدث بالنسبة إلى الله تعالى الواجب الوجود دائماً من الأزل إلى الأبد ، بينما العالَم خاضع للزمن ، فهو محدث ومنفعل بالنسبة إلى نفسه ، أي أنّ العالم فيه فاعل ومنفعل أو أسباب نتحت عن مسبّبات. فالعلم منفعل عن الحياة ، كما أنّ القدرة منفعلة عن الإرادة أي : (الحياة والعلم والإرادة والقدرة) عن (الحي ، العالِم ، المريد ، القادر) فأوجد الله تعالى :

أ. من العقل الأوّل – أي القلم – ومن نسبة **الحياة** التي انفعل عنها الهباء أو (الطبيعة).

ب. ومن النفس الكلّيّة ومن نسبة **العلم** التي انفعل عنها الجسم الكل أو العرش.

وهذه الأربعة (القلم والهباء والنفس والعرش) أصل ظهور الصور في العالَم.

وأوّل صورة ظهرت في الهباء كانت صورة الأبعاد الثلاثة ، فكان **المكان** أي العرش ، وسمّي هذا الجسم الشفّاف اللطيف المستدير المحيط بأجسام العالَم **العرش** ، وقد يسمّى (الفلك الأقصى) أو (الجسم الكل) ، واستوى عليه باسمه **الرحمن** ، واحد الكلمة (كن) ، فهو رحمة وسعت كلّ شيء ، وكما يقول ابن عربي حرفيّاً : (**كان استواءً منزّهاً عن الحدّ والمقدار ، معلوم عندهُ وغير معلوم للعقول والأذهان**) قال تعالى : ﴿فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً﴾[1] والضمير في (بِهِ) يعود على الاستواء ، وما استوى الرحمن إلاّ بعد أن خلق الأرض وقدّر فيها أقواتها ، وخلق السموات وأوصى في كلّ سماء أمرها ، فكان الفلك المحيط بكل شيء. وقد أسهب ابن عربي في وصف العرش وحَمَلَته من الملائكة (**وهم أربعة**

---

[1] – سورة الفرقان ، الآية 59.

تحمله لأنّه ذو أركان أربعة ، يكونون في الآخرة ثمانية)[1] وكان عرشه على الماء الجامد ، ولذلك يضاف البرد إلى الرحمة كما قال صلّى الله عليه وسلّم ***(وجدت برد أنامله فأعطاه العلم الذي فيه الرحمة)*** ، فكان جوهر الماء هو أوّل عناصر الطبيعة وأبسطها ، فالذرة تركيبها واحد في الطبيعة وابتدأت بسيطة وهي عنصر الهيدروجين المشكّل للماء (H) تركيبه الذرّيّ (1) وتكافؤه (1) ، ثمّ أخذت المادّة بالتعقيد في تحوّلاتها ، وبالتالي ظهرت العناصر المختلفة وخواصّها الفيزيائية والكيميائية المختلفة ، قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[2]، فالماء يشكّل أكبر نسبة من بنية كلّ حيّ . وفي الهباء ، وهي آخر ما وجد من عالَم الأمر ، تأتي الطبيعة الحركيّة من أربع حقائق مستمدّة من الحقائق الإلهيّة الأربعة : (الحياة ، العلم ، الإرادة ، القدرة) من (الحيّ ، العالِم ، المريد ، القادر).

- **فالحرارة** من العقل ، والعقل من الحياة ، لذلك طبع الحياة في الأجسام العنصرية الحرارة.
- **والبرودة** من النفس ، والنفس من العلم ، لذلك يوصف العلم المستقر ببرد اليقين.
- ثمّ **الإرادة** اليبوسة لأنّها من مرتبتها.
- ثمّ طلبت **القدرة** الرطوبة لأنّها من مرتبتها.

2- ثمّ أوجد الله تعالى في العماء جسماً آخر هو **الكرسيّ** ، وقد خلق الكرسي في جوف العرش مربّع الشكل ، وبينهما فضاء واسع وهواء محترق. يقول ابن عربي فيه : **(قبله العماء كما قبل صورة العرش على حدّ واحد ولكن بنسب مختلفة)** ولا يجب أن نتخيّل أنّ الكرسيّ محصور فوق السموات ودون العرش ، بل هو كما قال تعالى : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾[3] لا يحصره وجود ، وبذلك يمكن أن نتخيّل أنّ الكرسيّ هو علمه الذي أحاط بكلّ شيء.

---

[1] – المنهج الذي اخترته في هذا الكتاب يجعلني لا أدخل في التفاصيل التي يذكرها ابن عربي ، متوخّية الإيجاز.

[2] – سورة الأنبياء ، الآية 30.

[3] – سورة البقرة ، الآية 55.

وقد انقسمت الكلمة الواحدة التي هي في العرش رحمة إليها مآل كلّ شيء ، انقسمت في الكرسيّ إلى رحمة وغضب مشوب برحمة. اقتضى ذلك القبض والبسط والأضداد كلّها[1] ، فقال تشبيهاً : تدلّت إليه القدمان. والقدم : الثبوت. وله ملائكة مقسّمات ، ولهذا انقسمت الكلمة فيه ، فإنّ الله وكّلهم بالتقسيم مع الأنفاس وهم المطيعون ، فحيل بينهم وبين مشاهدة الوحدات ، فأيّة وحدةٍ تجلّت لهم قسّموها بالحكم ، فلا يشهدون إلاّ القسمة في كلّ شيء ، ولا غفلة عندهم ولا نسيان. أمّا ملائكة التوحيد فهم على النقيض ، وهذا جملة ما يختصم به الملأ الأعلى. فبالقدمين أغنى وأفقر ، وبهما أمات وأحيا ، وبهما خلق الزوجين : الذكر والأنثى ، وبهما أعزّ وأذلّ وضرّ ونفع. فالقدمان عبارة عن تقابل الأسماء الإلهية مثل : الأوّل والآخر ، والظاهر والباطن ، وهكذا اشتركتا في (الحكم في العالَم) الواحد بالفعل والآخر بالانفعال.

3- ثمّ أطلق الحقّ تعالى جسماً آخر مستديراً فلكيّاً وهو **الفلك الأطلس** : قدّر فيه سبحانه وتعالى اثني عشر تقديراً ، مقادير معيّنة سمّى ملاً منها باسم لم يسمّ به الآخر ، وهي **البروج** ، وهي التي أقسم بها لنا في كتابه فقال : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾[2] وأسكن في كلّ برج منها ملاكاً ، وهذه الملائكة أئمّة العالَم الذي تحت إحاطتهم ، وأظهر في هذه البروج سلطان الطبيعة ، أي سلطان العناصر الطبيعيّة[3] فكانت البروج كما يلي :

ج- **أبراج ناريّة** نتيجة ضمّ الحرارة إلى اليبوسة ، وهي : برج الحمَل ، برج الأسد ، برج القوس.

د- **أبراج ترابية** نتيجة ضمّ البرودة إلى اليبوسة ، وهي : برج الثور ، برج العذراء ، برج الجدي.

ه- **أبراج هوائيّة** نتيجة ضمّ الحرارة إلى الرطوبة ، وهي : برج الجوزاء ، برج الميزان ، برج الدلو.

---

[1] - المعزّ - المذلّ ، القابض - الباسط...

[2] - سورة البروج ، الآية 1.

[3] - الحرارة - البرودة ، الرطوبة - اليبوسة.

و- **أبراج مائيّة** نتيجة ضمّ البرودة إلى الرطوبة ، وهي : برج السرطان ، برج العقرب ، برج الحوت.

2- ثمّ أوجد الله تعالى في جوف الفلك الأطلس فلكاً آخر هو **فلك الكواكب الثابتة** ، وفيها 28 منزلاً ، وتسمّى أحياناً فلك المنازل ، قال تعالى : ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾[1] ولجميع كواكب هذا الفلك سباحة أو حركة فلكيّة ، ولكنّها حركة بطيئة لا يحسّ بها البصر إلاّ بعد آلاف السنين رصداً بالمراصد ، ونتيجة الحركة البطيئة وتقاطعاتها مع حركة فلك الأطلس تُظهر التأثيرات المختلفة والمتغيّرة دوماً في العالَم الذي يليها في المرتبة والخلق. ففي فلك الكواكب الثابتة أو فلك المنازل[2] ، أدار الله سبحانه فيها سبعاً من السموات ، وهي ليست أشياء ماديّة إنّما هي سموات مقدّرة ، أو هي حسب تعبير ابن عربي (**كواكب سابحة من الخنّس الكنّس**) أسكن في كلّ منها روحانيّة نبيّ من أنبيائه وأودع في كلّ منها من الاختصاص ما يميّزها عن الأخرى ، ولها حكم على ما يليها في المرتبة من المخلوقات ، وهي :

أ – في السماء الأولى أودع الله روحانيّة إبراهيم الخليل عليه السلام.

ب – في السماء الثانية أودع الله روحانيّة موسى عليه السلام.

ج _ في السماء الثالثة أودع الله روحانيّة هارون ويحيى عليهما السلام.

د – في السماء الرابعة أودع الله روحانيّة النبي إدريس عليه السلام.

هـ – في السماء الخامسة أودع الله روحانيّة النبي يوسف عليه السلام.

و – في السماء السادسة أودع الله روحانيّة كلمته عيسى عليه الذي هو من روحه عليه السلام.

ز – في السماء السابعة أودع الله روحانيّة نبيّه آدم عبده ورسوله.

---

[1] – سورة (يس) ، الآية 39.

[2] – المنازل جمع منزلة ، وتعني التقدير ، فهي ليست مكاناً أو حيّزاً.

فهمّ عُمّار السموات ، وقد قال تعالى : ﴿ومَا مِنّا إلاّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلوم﴾[1] وقد خلق الله تعالى هذا الفلك المكوكب في جوف الفلك الأطلس ، وما بينهما خلق الجنّات بما فيها. فهذا الفلك أرضها والأطلس سماؤها ، وبينهما فضاء لا يعلم منتهاه إلاّ من أعلمه الله. وبين مقعّر هذا الفلك إلى ما تحته هي الدار الدنيا ، فهي الفاصل بين الدنيا والآخرة ، وهي سقف جهنّم[2] وهذا الفلك المكوكب لم يكن مكوكباً عند خلقه ، وإنّما ظهرت الكواكب بعد ذلك[3] ، ثمّ إنّ الله توجّه إلى فتق هذا الرتق ليميّز أعيانها ، فظهرت الكواكب والسماء والأرض ، قال تعالى : ﴿كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا﴾[4] ويشرح لنا ابن عربي هذا الفتق بما يشبه ظهور الكون والمجرّات ، ويقول ابن عربي (**كانت ذرّة الماء أوّل عناصر الطبيعة ، ثمّ جرت عليها الاستحالات ، فما كثف منها وثقل شكّل أرضاً وكانت أسفل ، وما خفّ وارتفع شكّل السماء ، فكانت دخاناً. وحدث بين السماء والأرض ركنان من المركّبات ، الركن الواحد الماء المركّب ممّا يلي الأرض لأنّه بارد رطب فلم تكن له قوّة الصعود ، فبقي في الأرض تمسكه بما فيها من اليبوسة ، والركن الآخر النار ، وهو كرة الأثير ممّا يلي السماء من أجل حرارته ، واليبوسة تمسكه هناك. وحدث ما بين النار والماء ركن الهواء من حرارة النار ورطوبة الماء ، فلا يستطيع أن يلحق بالنار فإنّ ثقل الرطوبة يمنعه أن يكون بحيث النار ، وكذلك تمنعه الحرارة من النزول إذا طلبت الرطوبة تنزله إلى حيث الماء ، فلم يبقَ إلاّ أن يكون بين النار والماء يتجاذبه وهو الهواء ، وكان التأثير وقتها برج السرطان ، ثمّ ظهرت الاحتراقات من عنصر النار في رطوبات الهواء والماء صعد منها دخان يطلب الفلك الأعلى الأقصى فوجد فلك الكواكب يمنعه من الرقيّ إلى الفلك الأعلى فعاد ذلك الدخان يتموّج بعضه في بعض ، فتراكم وشكّل رَتَقاً فتقه الله بسبع سموات ، ثمّ إنّه تطاير الشرر من كرة الأثير في ذلك الدخان ، فقبلت من**

---

[1] – سورة الصافات ، الآية 164.

[2] – لابن عربي شرح مفصّل لذلك في كتابه (الفتوحات المكيّة).

[3] – كانت مرتوقة غير متميّزة.

[4] – سورة الأنبياء ، الآية 30.

السموات ومن الفلك المكوكب أماكن فيها رطوبات طبيعية ، فتعلّقت بها تلـك الشـرر فاتّقدت تلك الأماكن لما فيها من الرطوبـات ، فحدثـت الكواكـب ، فأضـاء الجـو كمـا يضيء البيـت بالسـراج ، فكـانت الشـمس ، وقـد قـال ا لله تعـالى : ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً﴾[1] يضيء به العالَم ، وتُبصَر بـه الأشـياء الـتي كـان يسـترها الظـلام ، فحـدث الليل والنهار والأرض ، ورتّب ا لله تعالى في كلّ فلك وسماء عالَماً من جنس طبيعة ذلك الفلك سمّاهم الملائكة ، وجعلهم مع تسـبيحهم المستمرّ لله تعـالى مسـخّرين لمصـالح مـا يخلقه في عالم العناصر من المولّدات)

بهذا الشكل وصف ابن عربي الكون المـادّيّ المتشـكّل عـن الانفجـار الأوّل ، وبعـد شرح فيه الكثير من التفاصيل انتهى إلى القـول : (ثـمّ كـوّن الإنسـان مضاهيـاً لجميـع مـا ذكرنـاه مـن المحدثـات ، ثـمّ وهبـه ا لله معـالِمَ الأسمـاء والصفـات ، فمهّـدت لـه هـذه المخلوقات المعجزات. ولهذا كان آخر الموجودات ، فمن روحانيّته صحّ لـه سـرّ الأوّليّـة في البدايات ، ومن جسميّته صحّ له سرّ الآخريّة في الغايـات ، فبـه بُـدِءَ الأمـر وخُتِـم ، وأقامه خليفة في الأرض لأنّ فيها ما في السموات ، وأيّده بالآيات والعلاقات والدلالات والمعجزات ، واختصّه بأصناف الكرامات ، ونصـب بـه القضايـا المشـروعات ليميز بـه الخبيثات من الطيّبات)[2]

5- قال تعالى : ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً * إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾[3] وابتـدأ خلـق مـا يسـمّى بالطبيعة مستمدّاً أرواحها من النفس الكلّيّة ، وهي نفوس المولّـدات في العـالم ، وبها سرت الحياة ، ومنها ما هو ظاهر ، ومنها ما هو باطن. فأوّلها الجمـاد وقـد بطنـت

---

[1] – سورة نوح ، الآية 16.

[2] – ابن عربي ، الفتوحات المكية.

[3] – سورة الإنسان ، الآيتان 1و2.

حياته فلا تظهر فيه حركة ، إنّما حركته باطنة[1] ، وفيها يقول الله تعالى : ﴿ وإن من شيء إلاّ يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾[2] وما بطنت حياته وتميّز بالنموّ والغذاء سمّي نباتاً ، وما ظهرت حياته وحسّه سمّي حيواناً. ثمّ حصل التطوّر في المملكة الحيوانيّة وارتقت إلى أن وصلت إلى الثدييات ثمّ الإنسان ، ولمّا انتهى الحكم في الأرض إلى برج العذراء ظهرت النشأة الإنسانية بتقدير العزيز العليم ، فأنشأ الله عزّ وجلّ الإنسان (الحيوان الناطق) من حيث جسمه خلقاً سويّاً ، وأعطاه الحركة المستقيمة ، أي استقام عموده الفقريّ واقفاً ، قال تعالى : ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً * وقد خلقكم أطواراً * ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً * وجعل القمر فيهنّ نوراً * وجعل الشمس سراجاً * والله أنبتكم من الأرض نباتاً * ثمّ يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً * والله جعل لكم الأرض بساطاً * لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً ﴾[3].

ويقول ابن عربي : **(إنّ ولاية برج السنبلة – العذراء – في العالَم العنصريّ سبعة آلاف سنة ، وينتقل الحكم بعدها إلى برج الميزان ، وهو زمان القيامة ، وفيه يضع الله الموازين فلا تظلم نفس شيئاً)**[4].

إنّ هذه العوالم التي ذكرناها ، وهي عالم الأمر وعالم الخلق وعالم الملكوت ومن ثمّ عالم الجماد وعالم الحيوان ، ليست عوالم منفصلة عن بعضها ، بل هي عوالم متداخلة بعضها مع بعض ، لم نفصلها إلاّ لدراستها وتصنيفها. ويمكننا تشبيه ذلك بجسم الإنسان ،

---

[1] – وقد أثبتها العلم الحديث ، وهي الحركة المستمرّة في نواة الذرّة وما يحيط بها من اليكترونات ، وهو من ضمن البناء الهيكليّ للمادّة الجامدة.

[2] – سورة الإسراء ، الآية 44.

[3] – سورة نوح ، الآيات 13 – 20.

[4] – الفتوحات المكية ، ج4 ، ص294.

فعندما ندرس فيه جهاز الهضم أو جهاز الدوران أو التنفّس – مثلاً – ندرس كلّ جهاز على حدة وندرسه ونصنّفه ، بينما هي في الواقع متداخلة بعضها مع بعض. ونلخّص الموضوع اختصاراً بقولنا : إنّ لكلّ شيء جسماً وروحاً ، جسم من عالَم الخلق ، وروح من عالَم الملكوت. جسم اعتمد في خلقه على الأسباب ، وروح من أمره (كن) ، قال تعالى : ﴿فَسُبْحَانَ الذي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرجعونَ﴾[1] فالجسم من عالَم الشهادة ، والروح أو الملكوت من عالَم الغيب. وهذه الأشياء متفاوتة في بساطة تركيبها أو تعقيده بشكل متدرّج ، وأعني بذلك أنّ الجسم البسيط ، وليكن ذرّة ما أو عنصراً ، تكون روحه بسيطة ، وهي ما تحمله نواة تلك الذرّة من المعرفة الخاصّة بها ، بينما كلّما تعقّدت المادة تعقّدت روحها ، وإن كانت واحدة المصدر ، إلى أن وصلنا في سلّم التطوّر إلى الإنسان الذي فصّلنا روحه على أنّها سموات سبع لكلٍ منها وظيفة منفصلة عن الأخرى أو كيان قائم خاصّ بينما نجمعها اختصاراً ونقول هي روحه ، ونقول إنّ للإنسان جسم وروح ونفس تجمع بينهما. وهكذا نرى أنّ موضوع التطوّر في الخلق والمخلوقات موضوع مثبت علميّاً وعمليّاً ، ولا مجال للشكّ فيه ، ولكنّنا نتساءل عن الغاية من ذلك ، فيشرحها ابن عربي كما يلي :

(إنّ الله سبحانه جعل العالَم في الدنيا ممتزجاً مزج القبضتين في العجنة ، أي مزج المتناقضَيْن الخبيث والطيّب ، ثمّ فصل الأشخاص منها ، فدخل من هذه في هذه من كلّ قبضة في أختها ، فجُهِلَت الأحوال. وفي هذا تفاضلت العلماء في استخراج الخبيث من الطيّب والطيّب من الخبيث ، وغايته التخليص من هذه المزجة وتمييز القبضتين حتّى تنفرد هذه بعالمها وهذه بعالمها ، كما قال تعالى : ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾[2]**)** بعد الامتحان الذي تتعرّض له خلال الحياة الدنيا فتتميّز ، ويكون للطيّب الجنّة وللخبيث جهنّم.

---

[1] – سورة (يس) ، الآية 83.

[2] – سورة الأنفال ، الآية 37.

وقد قسّم ابن عربي البشر قسمين : **سعداء و أشقياء** ، ولكلّ فئة قسمين :

1 – **فالسعداء :**

- **أصحاب اليمين.**

◊ إمّا أن يكونـوا مـن **أهـل الرحمـة** ، وهـم البـاقون على سلامةنفوسـهم وصفاء قلوبهم وحسب استعدادهم ، وذلك من فضل ربّهم.

وإمّا أن يكونوا من **أهل العفو** ، وهم – كذلك قسـمان : قسـم معفـوّ عنهم رأساً لقـوّة اعتقـادهم ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾[1] ، وقسـم يعذّبون حيناً ، وهم أهل العدل والعقـاب : ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾[2] ثمّ تتداركُهُمُ الرَّحْمَةُ.

- **السابقون المقرّبون** ، وهم أهل ا لله.

◊ إمّا أن يكونوا **محبّين** وهم الذين جاهدوا في سبيل ا لله فهداهم سبيله...

◊ وإمّا أن يكونوا **محبوبين** وهم أهل العناية الإلهيـة الذيـن اصطفـاهم ا لله تعالى.

وجميع أصناف السعداء يسمّيهم (**المتّقين**) والقرآن الكريم هدى للمتّقين.

2. **الأشقياء ، وهم :**

ب. **المنافقون** : الذين تعرّوا عن الإيمان وانتظموا في الإسلام وما جاوزوا إيمانهم خزانة خيالهم.

ت. **المطرودون** : وهم أهل الظلمة والحجاب الكلّيّ المختوم على قلوبهـم ، وذلك إمّا عن عدم استعدادهم ، أو زوال هذا الاستعداد.

---

[1] – سورة الفرقان ، الآية 70.

[2] – سورة الزمر ، الآية 51.

تعـاريــف

لا تكتمل معرفتنا لحقائق الأمور إلاّ باطّلاعنا علـى باطنهـا وإضافـة علـم البـاطن إلى علم الظاهر. وبما أنّ علم الظاهر هو الأسـهل فقـد سـلكه أكـثر النـاس و لم يبحثـوا في علـم الباطن ، مع إنّه الأجمل والأمتع ، يمنح الإنسان الحكمة والمعرفـة الصحيحـة ، ويتعـرّف مـن خلاله على ضروب الروعة والجمال في الحياة. وفي سبيل ذلك أبدأ بشرح بعـض التعـاريف لكلمات متداولة تعترضنا في الحياة ونمرّ بها مرور الكرام فلا ندقّق فيما تعنيه ، ومنها :

الـــزمـــن

إنّ الشروط الفيزيائيّة للحياة العاديّة في العالَم معتمدة على وجـود الزمـن[1] ، فطبيعـة العلاقات المادّيّة تتمثّل في التأثير المتبادل والتغيّر المتلاحق مع مرور الزمن. ونحن نشعر بمـرور الزمن ونعتبره واقعاً لا بدّ من تقبّله شئنا أم أبينا. فهو مـن الأعـراض الـتي ليـس لهـا عـين أو

[1] – ويطلق عليه علماء الرياضيّات والفيزياء (البعد الرابع).

حقيقة جوهريّة قائمة بذاتها ، بل هو حاكم على المادّة التي لها وجود حسّيّ ملموس ، وبتأثيره على المادّة يشعرنا بوجوده.

ونحن البشر ، من حيث كوننا مادّة ، خاضعين لهذا التأثير ، أي خاضعين للزمن ، ولا يمكن لخيالنا إلاّ أن يخرج عن تأثير الزمن. وما الخيال إلاّ بداية روح الإنسان أو سمواته. وهكذا ، فعندما تنفصل سموات الإنسان عن أرضه يترك أرضه في مجال الزمن ، وينعتق بسمائه عن هذا التأثير ، فيصبح خالداً في الآخرة. فلا تظنّ أيّها الإنسان أنّ مَن مات منذ مئات السنين ينتظر أخاه الإنسان الحيّ في الوقت الحاضر ، أو أنّ الأحياء الذين سيموتون في المستقبل انتظاراً ليوم القيامة كانتظارنا لمرور الزمن في الحياة الأرضيّة ، قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾[1]

وهذا القول لا يكون إلاّ يوم القيامة ، فما وقع ، فعبّر بالماضي عن المستقبل لتحقّق وقوعه ولا بدّ. وما كان كذلك فحكم الماضي فيه والمستقبل على السواء. وفي القرآن الكريم عدد من الأمثلة على ذلك. وهذا يوضّح ارتباط الزمن بالحياة الدنيا ولا تأثير له في الآخرة.

ويعرّف ابن عربي الزمن بما يلي : (**هو مدّة متوهّمة تقطعها حركات الأفلاك ، فهو نسبة متوهّمة الوجود للممكن ولكن لا وجود عينيّ لها**)[2] واليوم الذي يحدّده الليل والنهار بطلوع الشمس وغروبها هو واحدة الزمان بالنسبة للأرض ، وقد قُسّم إلى ساعات ودقائق وثوان.. وكلّها أعداد لها حكم العدد غير المتناهي نظريّاً ولا عين له. ولكلّ كوكب يوم خاصّ به ، بينما واحدة الزمن بالنسبة للإنسان كوحدة قائمة بذاتها تجمع حقائق الكون فيها ، هي **الأنفاس**. وإذا فكّرنا بلحظة الحاضر الذي نعيشه واللحظة السابقة له التي أصبحت ماضياً ولا يمكن أن تعود وإلى المستقبل الذي لا ندري ما يخبّئه لنا ، فإنّنا نتأكّد أنّنا في دوّامة الزمن. ولكنّ الله سبحانه وتعالى المطلق الأزليّ الخارج عن نطاق الزمن يجمع بين الماضي والحاضر والمستقبل علماً ، فهو مطّلع على المستقبل كما هو مطّلع على الماضي والحاضر ، وهذا لا يعني أنّه يفرض على الإنسان مستقبله ، لأنّ مستقبل كلّ إنسان له

---

[1] – سورة المائدة ، الآية 116.

[2] – الفتوحات المكّيّة ، ج1 ، ص291.

خضوع جزئيّ لإرادة الإنسان ذاته ، ولكن بمشيئة ا لله الذي يطّلع على مـا سيقوم بـه هـذا الإنسان وبإرادته وبقدرته تعالى التي أعطاها لعبده أمانة لديه ، بينما هـو تعـالى خـارج عـن نطاق الزمن.

الإنـفـاق :

يشرح ابن عربي الإنفاق اختصاراً بما يلي : (**الإنفاق لطلب عطاء ا لله ، ثمّ الإنفاق لطلب رضاء ا لله ، ثمّ الإنفاق با لله ، وهو مقام شهود الذات. والإنفاق المحمود له ثلاثة أوجه :**

- **كونه موافقاً للأمر بالنسبة إلى ا لله تعالى.**
- **وثانياً كونه مزيلاً لرذيلة البخل بالنسبة إلى نفس المنفق.**
- **وثالثاً بالنسبة للمستحقّ يبطله الأذى المنافي للراحة)**[1].

قال تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين ﴾[2] عندما قال الذين كفـروا للذيـن آمنوا (أنطعم من لو يشاء ا لله أطعمه) ، يتراءى للإنسان العاقل الذي يفكّر بعقله فقـط أنّـه كلم منطقيّ ، فا لله سبحانه وتعالى يرزق عباده جميعا فلماذا لم يـرزق هـذه الفئـة أو تلـك؟ كما أنّ بعض الناس يفكّرون أنّنا لو أعطيناهم قد يتعوّدون على الكسل وطلـب المعونـة ولا يعتمدون على أنفسـهم وذلـك مفسـدة لهـم.. فبمـاذا أجـابهم ربّ العـالمين ردّاً علـى هـذه الأفكار؟ قال إنّكم في ضلال مبين إذا فكّرتم بهذا الأسلوب ، إذا فكّـرتم أنّ الـرزق رزقكـم وأنّكم تتفضّلون به عليهم ، والصحيح أنّ الرزق الذي تتنعّمون به ليس لكـم خالصـاً ، بـل إنّ ا لله الذي رزقكم وساهم معكم في حصولكم عليه له فيه حقّ مثل حقّكم فيه ، ويتطلّب

---

[1] – الفتوحات المكية.

[2] – سورة (يس) ، الآية 47.

منكم التصرّف بهذا الحقّ بالشكل الذي يريده وهو الإنفاق على الآخرين ، وبذلك تشعر بوجود الله معك وبأنّه شريك لك في قدرتك ورزقك..الخ. ثـمّ إنّ مردود ما تنفقه على غيرك يعود عليك بفوائد معنويّة كبيرة أكثر من الفائدة التي تعود منه على مَنْ قدّمته له ، فهو يعطيك الشعور بالرضا والثقة بالنفس إضافة إلى مشاعر المودّة والتراحم مع الغير.

وفي موضوع الإنفاق يطالبك الله تعالى بالاعتدال فيه ، فلا تسمح للشحّ أن يسيطر عليك ، فهو صفة مذمومة يرتدّ منها الضرر على صاحبها ، وكذلك لا تسمح لنفسك أن تكون من المسرفين الذين يبغضهم الله ويذكرهم مثالاً سيّئاً للبشر.

الكلام :

الغاية من الكلام هي إخراج الأفكار من باطن الإنسان وإعطاؤها شكلاً أو صورة تعبّر بها عن المعنى المطلوب منها. ومهما كانت قدرة الإنسان على التعبير قويّة فلا بدّ أن يكون المعنى الموجود في باطنه أوسع وأكبر ممّا استوعبته الكلمات أو الجمل. وعندما يتلقّى المتلقّي هذه الكلمات أو هذه الجمل ويفهم منها معنى ما ، فإنّ ما يفهمه لا يكون بالضرورة مطابقاً للمعنى الذي أراده المتكلّم. فلا بدّ أن يكون هناك نوع من الانسجام أو التّطابق حتّى يُفهم المقصود[1].

والكلام هو أحد وجوه الشبه أو التناسب بين الإنسان والله تعالى خالقه. فكما أنّ الحقّ لا يكلّم عباده ولا يخاطبهم إلاّ من وراء حجاب كذلك الإنسان ، فإذا أرادت النفس الناطقة أن تكلّم نفساً أخرى كلّمتها من وراء حجاب صورة جسدها ، وبلسان تلك الصورة ولغتها ، يقول ابن عربي : (**إنّ النَفَسَ للرحمن والكلام لله. والقول ، وهو انتهاء النَفَس إلى عين كلمة من الكلمات ، فيظهر عينها بعد بطونها ، وتفصيلها بعد إجمالها. فإن قلتَ فائدة الكلام الإسماع ، وما في الوجود إلاّ الله ، وهو متكلّم فمَنْ أسمع ؟ قلنا :**

[1] – يمكن تشبيه ذلك بأجهزة التلفزة الحديثة. فإذا لم يُتمكّن من التوليف بين جهاز الإرسال أو البثّ وبين محطّة الالتقاط أو قناة الاستقبال تامّاً لا يمكن أن تكون الصورة واضحة.

ليس من شرط السامع أن يكون موجوداً ، فإنّه يقول للمعدوم في حال عدمه (كن) فيكون عندما يتعلق الأمر بسمعه الثبوتي كلام الله وأمره)[1] فبالقول يسمع المعدوم (وهو الشيء الموجود في العدم) ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[2] وبالكلام يسمع الموجود ، قال تعالى : ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[3] وبذلك يكون أثر الكلام في المعدوم هو الوجود وأثره في الموجود هو العلم وتغيّر الحال. وتلك الآثار تسمّى كلمات الله ، وهي أعيان الكائنات وجوهرها. فكلام الله لا يتناهى ، ولا يثبت الكلام لله إلاّ شرعاً. وليس في قوّة العقل إدراكه. وكما أنّ انضمام الأحرف بعضها إلى بعض يحدث في السمع الكلمة ، وهي نسبة ضمّ تلك الحروف ، فيعطي بجميعها صورة لم تكن موجودة قبل تجميع هذه الحروف وتركيبها بهذه النسبة ، وهي تحمل معنى معيّناً هو روح هذه الصورة. وعندما جعل الله النطق في الإنسان على أتمّ الوجوه جعل له ثمانية وعشرين مقطعاً للنَفَس ، فالعين واحدة من حيث أنّها نفس ، وثمانية وعشرون مقطعاً من حيث أنّها حروف لها شكل وصورة ، لأنّ العالَم على ثمانية وعشرين من المنازل التي تجول الكواكب السيّارة فيها وفي بروجها ، وهي أمكنتها من الفلك المستدير كأمكنة المخارج للنفس لإيجاد الحروف.

يقول ابن عربي : **(إنّ التركيب هو الذي تشهده العين ، فإنّها لا تشهد إلاّ مركّباً من بسائط ، والمركّب ليس بأمر زائد على بساطته إلاّ نسبة جمع البسائط ، وهذه النسب لا تتناهى ، فلذلك لا تنفد كلمات الله. فالوجود بسائط والإيجاد نسبتها لبعضها ، فالوجود والإيجاد لا يزال دائماً وغير متناهٍ. فاعلم أيّها المركّب[4] مَنْ أنت**

[1] – الفتوحات المكية ج2 ، ص400.

[2] – سورة (يس) ، الآية 82.

[3] – سورة النساء ، الآية 164.

[4] – يقصد الإنسان.

وكيف لم تظهر لعينك في بسائطك وظهرت لعينك في تركيبك ، وما طرأ أمرٌ وجوديٌّ إلاّ نسبة التركيب)[1].

نفهم من هذا الكلام أنّ الأحرف المكوِّنة للكلمات عددها محدود ، وهي التي يسمّيها (بسائط) ، وهي تقابل العناصر الطبيعية المكوّنة للمادّة. إنّما جمع هذه الحروف بتركيبات مختلفة وبنسب لا تتناهى ، بشكل عام ، والذي هو شكل خارجيّ أو صورة للمعنى الذي يحويه ، والمعنى هو المقصود ، فالسامع يفهم هذا المعنى فيترك في نفسه أثراً أو علماً بشيء ما. وليست الحروف إلاّ صوراً مادّية تجسّد المعنى ، فهذه الآثار أو المعاني هي التي تسمّى كلمات الله ، والتي لا تتناهى.

وينطبق هذا المفهوم وتركيبه للكلام ومعناه على الإنسان وتركيبه ومعناه. فالإنسان مركّب من بسائط ، تتجمّع مع بعضها فتعطي صورة هذا الإنسان أو هيكله. والبسائط المكوّنة للبشر واحدة ، إنّما نسبة تجمّعها تختلف من واحد إلى آخر. و هذه النسبة تحدّد شخصيّة كلّ إنسان وهويّته ، فالإنسان كصورة الكلمة المركّبة من أحرف ، ولكن المهم هو معنى هذه الكلمة لا صورتها ، وتقابلها روح هذا الإنسان أو (روحانيّته) وهكذا ظهور روحانيّة كلّ إنسان أو عينه في الوجود ما هو إلاّ نسبة تركيب بسائطه ، وعندما تتحلّل بسائطه المادّيّة ويتفكّك تركيبها تنتقل روحانيّته إلى موطنها الثاني ، إلى حياة الخلود في الآخرة.

---

[1] - ابن عربي ، الفتوحات المكية.

محيي الدين بن عربي

تعريف موجز

هو أبو بكر محمد بن علي ، وشهرته محيي الدين باعتبار مصنّفاته في التصوّف وتفسيراته في الدين ، التي قيل إنّه قد جدّد الدين ، وهو ابن عربي لأنّه العَلَم الوحيد من أعلام الصوفية المتميّز بعروبته ، فهو ينحدر من قبيلة طيء العربية.

ولد بمُرْسيةَ في الأندلس سنة 560 للهجرة ، وتوفّي بدمشق سنة 638 للهجرة ، ودفن على سفح جبل قاسيون.

ولابن عربي نحو الأربعمائة كتاب ، أشهرها **الفتوحات المكية** الذي يقع في خمسمائة وستين باباً ، يلخّصها جميعاً الباب التاسع والخمسون. ولمّا طلب ابن عربي من ابن الفارض أن يشرح قصيدته التائية أجاب ابن الفارض أنّه لا يجد لها شرحاً خيراً من الفتوحات المكية. ويلي الفتوحات المكية في الأهمية كتاب **فصوص الحِكَم**. كما له كتاب **محاضرة الأبرار** ذكر فيه بعض سيرته الذاتية.

ولابن عربي تفسير صوفيّ للقرآن الكريم ، وله ديوانــان في الشعر أحدهمـا **ترجمان الأشواق** وهو غزل صوفيّ.

بدأ ابن عربي التصوف في العشرين من عمـره ، ودخـل الطريقـة وأصبح صوفيـاً في الحادية والعشرين ، وكان أبوه رجلاً صالحاً ، كما كان له خال ترك المُلك ليصبح صوفياً ، وآخر كان يصلّي طوال الليل حتّى تكلّ قدماه فيضربهما مغضباً.

كانت لابن عربي سياحات كثيرة في الأندلس والمغرب والأناضول والعراق والحجاز ومصر والشام.

وعند ابن عربي ا لله هو الحقيقة الأزلية ، والوجود المطلق الواجـب الـذي هـو أصـل كلّ ما كان وما هو كائن وما سيكون. ووجود العا لم بالنسبة إليه كوجود الظلال والمرايا ، والعا لم في نفسه خيال وحُلم ، والوجود الحقيقي هو وجود ا لله ، وهو الوجود الجامع لكـل وجود ، والظاهر بكل موجود. ولا يحاول ابن عربي أن يبرهن علـى وجـود ا لله ، فوجـوده غنيّ عن كلّ برهان ، لأنّ الحقّ ظاهر بصور جميع الموجودات ، ولا شيء أظهر من الوجود.

لم يكن ابن عربي يجري في تأليفه لكتبـه مجرى المؤلّفـين ، ولكنّـه كـان يـترك نفسـه لفيوض الرحمن ويعكف بقلبه على باب حضرته. وهو يقول إنّ ا لله سبحانه هو معلمـه ، و أنّ إرثه هو الإرث النبوي المحفوظ والمعصـوم مـن الخلـل. وهـو يجعـل التصـوّف بديـلاً عـن الفلسفة ، ومصنّفاته – في أغلبها – نصائح للمريد والطالبين والسالكين.

وينصح ابن عربي المريدين أن يكسبوا قوتهـم مـن حرفـة يحترفونهـا إن لم يصلـوا إلى مرتبة التوكّل ، وينصحـه أن يسـتفيد مـن وقتـه دون توقّـف ، وأن يحـرص علـى التطهّـر ، والأصل في ذلك أنّ النفس والقلب والروح فقدت روحانيتها بالاتّصـال بـالبدن ، وتجْليتهـا تكون بالمجاهدة.

والزهد أولى درجات الفضائل عنـد ابـن عربـي ، بعـد التوبـة ، وحقيقتـه الإعـراض الإرادي عن الدنيا ، ويأتي بعد الزهد التجرّد أي تخلية القلب وقطع كلّ العلائـق ، ويكـون معه البذل عن رضا ، والتضحية عن طواعية ، والإحسان عن غنـى نفسـي ، والقناعـة عـن

اقتناع. أمّا **بلوغ الكمال** فيكون بمحاسبة النفس صباح مساء ، واستدامة استشعار حضور الله والأنس به عن كلّ خلق والذكر والدعاء والتفكّر.

لقيت مؤلّفات ابن عربي اهتمامات كبيرة عند المسلمين وغيرهم ، ومن أشهر من كتب عنه السيوطي في كتابه (تنبيه الغبي في تبرئة ابن عربي) وسراج الدين المخزومي في كتابه (كشف الغطاء عن أسرار محيي الدين). كما اختصر الإمام الشعراني الفتوحات المكية في كتاب أسماه **اليواقيت والجواهر** دلالة على إعجابه بأفكار ابن عربي. ويعكف الباحث القدير **عثمان يحيى** على تحقيق الفتوحات المكية في مجلّدات قد تزيد على الثلاثين.

وممّن تأثّر بابن عربي الشاعر السويدي **غونار إكلف** كثيراً ، ولاسيّما بديوانه ترجمان الأشواق ، فكتب ديواناً كاملاً مستوحى من شعر ابن عربي أسماه **ديوان فاطمة**. أظهر فيه عظمة الحبّ الإنساني النبيل عندما يكون طاهراً غيريّاً لا غريزياً وحسب. كما كتب الشاعر العربي السوري **فوّاز حجّو** ديواناً بعنوان **ابن عربي يترجم أشواقه** وهو عبارة عن لمحات وحالات إنسانية هي أقرب إلى الصوفية[1].

---

[1] – اعتمدنا في هذه الترجمة على كتاب الدكتور عبد المنعم الحفني **الموسوعة الصوفية** طبعة دار الرشاد بالقاهرة 1992 ، وعلى بعض الكتب التي اهتمت بابن عربي أو استلهمت أفكاره وشعره وقد أوردنا ذكرها في الترجمة.

الفهرس

إلى القارئ العزيز

يسرّ (دار أفنطه) ومؤلّفة هذا الكتاب أن تتلقّيان ملاحظاتكم سواء أكانت تخصّ مضمون الكتاب أو إخراجه أو طريقة توزيعه أو سعره ومدى تناسبه مع دخل القارئ ، أو أي ملاحظة أخرى تخصّ هذا الكتاب أو كتب (دار أفنطه) عموماً ، وذلك على العنوان التالي :

مكتب (دار أفنطه) في الوطن العربي

ص.ب 6104 – حلب – سورية

Contemporary readings of Ibn Arabi's Thoughts

Maysoun Musallati

AVANTA PUBLICATIONS
STOCKHOLM - SWEDEN
1997

قراءة معاصرة
لأفكار ابن عربي

يعدّ محي الدين بن عربي أحد روّاد الفكر الصوفي العربي الإسلامي، وهو الذي نادى باتّخاذ التصوف بديلاً عن الفلسفة، أي بتعبير آخر، هو الذي جدّد الفلسفة الإسلامية في زمنه. وما يزال ابن عربي محطّ اهتمام الباحثين والدارسين عند الغرب والشرق على حدّ سواء. ولعلّ صدور دراسة عنه تفسّر بعض آرائه وأفكاره يعدّ حدثاً مهمّاً على صعيد الفكر العالمي عموماً، لاسّيما إذا كانت هذه الدراسة صادرة عن قارئة شديدة الحرص على الغوص في عمق أفكار ابن عربي واستخراج دررها ولآلئها ، وتلك هي المؤلفة المهندسة المعمارية ميسون مسلاّتي، وقد كنتُ أطّلع على عملها الدؤوب الهادئ وهي تنقّب في أسفار ابن عربي ولا سيّما الفتوحات المكّية فأدخل معها في نقاش حيناً، وأكتفي بالإنصات إليها في أحيان كثيرة لكوني أستمع إلى قراءة جديدة لأفكار ابن عربي تواكب العصر الذي نعيش فيه وتنفي - كلما تقدّمت العلوم - صفة التناقض عن الفكر العربي الإسلامي عموماً، وفكر ابن عربي بشكل خاصّ .

ولعلّ ميزة هذا الكتاب بالذات أنّ مؤلّفته كانت زاهدة في نشره، وكل ما تتمنّاه أن تكون قد فهمت ابن عربي ، وقد تولّدت عندها فكرة نشره بعد ما ينوف على السنة من إنجازه .

إنّ هذا الكتاب هو قراءة معاصرة لأفكار ابن عربي، وستتبعه كتب هي قراءة لأفكار أخرى له. فلأفكار ابن عربي لا يستوفيها كتاب واحد .

محمد كرزون